

alexandra.ahlamontada.com
كورولنكو
ضجيج الغابة
منتدى مكتبة الأسكندرية



في المجتمع الفاسد

(من ذكريات صديقي عن طفولته)

В. Короленко
ЛЕС ШУМИТ
Рассказы
На арабском языке

ترجمة وصفي البني

١. الخرائب

كنت في السادسة من عمري حين توفيت والدتي. وقد بدا على والدي، وهو غارق كليا في احزانه، انه ناس وجودي كل النسيان. ومن حين لآخر، كان يداعب اختي الصغيرة، ويهتم بها على طريقته، فقد كانت عليها ملامح من امي. اما انا فقد كنت انمو نمو نبتة برية، دون ان اكون موضع رعاية خاصة من احد، ودون ان يضيّق من حريتي احد.

كان اسم البلدة الصغيرة التي كنا نعيش فيها كنياجيه - فينو او بتعبير ابسط كنياج - غورودوك. وكانت تنتمي الى سلالة بولونية جار عليها الزمن الا انها ظلت محافظة على عنفوانها، وتتوفر لها جميع سمات المدن الصغيرة في منطقة الجنوب الغربي بروسيا، حيث تنهي البقايا الهزيلة من عنجهية النبلاء

البولونيين ايام حياتها في حزن وأسى، الى جانب الحياة الهادئة القاسية التى يحياها الشغيلة الكادحون، وجلبة التسوق اليهودي الصاخبة.

حين يبلغ المرء المدينة قادما اليها من الشرق، يصدم بصره اول ما يصدمه ذلك السجن الذي يؤلف اجمل زينة معمارية في المدينة. وتنبسط المدينة نفسها في سفح التلال فوق رامتين راكدتين مغطاتين بالطحلب الاخضر، ينزل اليها الناس على طريق خفيفة المنحدر، يقطعها «الباب» التقليدي. ويبادر عسكري متقاعد كسيح عليل، احالت الشمس لون معطفه، هو صورة مجسدة للنوم الهادئ، فيرفع خشبة الحاجز في تراخ وفتور، فاذا انت في المدينة من حيث لا تشعر للوهلة الاولى. وتتعاقب الاسيجة الرمادية والاراضي الخلاء المتجمعة عليها هنا وهناك اكوام من الاقذار، مع البيوت ذات النوافذ الصغيرة نصف المطمورة في الارض. وتنبثق فيما بعد ساحة رحبة تقوم فيها هنا وهناك المداخل القاتمة للخانات اليهودية، وترهق الابصار الجدران البيضاء للمباني

الرسمية ذات الخطوط المعمارية المستقيمة كما في الثكنات. وتحت عجلات العربة يصرّ الجسر الخشبي القائم على النهير ويترنح ويتنحنح كأنه الشيخ الهرم. وبعد الجسر يبتدئ شارع اليهود بمخازنه ودكاكينه وحوانيته الخشبية الصغيرة، وطاولات الصرافين، الجالسين تحت المظلات الواقية من الشمس، واكشاك باعة الخبز. نتانة، وقذر، واكوام من الاطفال الزاحفين على تراب الطريق. وما تمضي دقيقة اخرى حتى تكون قد بارحت المدينة. وبصوت خافت تتهامس اشجار البتولا فوق اضرحة المقبرة، ويهز الهواء السنابل في الحقول، ويردد الى ما لا نهاية اغنيته الحزينة على اسلاك البرق القائمة على طرف الطريق.

كان النهير، الذي يمر من فوقه الجسر آنف الذكر، يجري من رامة لاخرى. وهكذا كانت المدينة محاطة من الشمال ومن الجنوب، بمرايا مائية واسعة واراض مستنقعية. وكانت الخضرة تجتاح الرامتين اللتين كان مستواهما يهبط من عام لآخر، وتتموج كالبحر تيجان القصب الكثيف فوق المستنقعات الفسيحة. وكانت وسط

احدى الرامتين جزيرة يقوم عليها قصر قديم متداع استحال الى خرائب.

واني لاذكر باية مخافة كنت انظر دائما الى هذا المبنى المهيب الهرم. وقد كانت تروج عنه اساطير واقاصيص الواحدة منها اشد هولاً من الاخرى. فكان يقال ان الجزيرة اصطناعية اقامتها ردماً ايدي اسرى من الاتراك. وكان المعمّرون يقولون ان «القصر العتيق يقوم على اساس من عظام البشر»، فكان خيالي الوجل، خيال ايام الطفولة، يتصور الالوف من الهياكل العظمية التركية تحت الارض، مسندة بسواعدها المعروقة الجزيرة بما عليها من اشجار حور هرمية الشكل عالية، والقصر العتيق. فما كان هذا بالطبع الا ليزيد القصر هولاً، فاذا هو، حتى في الايام المشرقة حين كنا ندنو منه اكثر قليلا مما اعتدنا الدنو، وقد تولدت الشجاعة في صدورنا بفعل النور وصداح الطيور العالي، يبعث في نفوسنا غالبا نوبات من الرعب البالغ درجة الهلع. الى هذا الحد كان مرعبا النظر الى جوف تلك الوقاب السوداء في جدرانه، وقاب النوافذ الفاغرة منذ زمن بعيد.

وفي القاعات المقفرة كان يجري حفيف غامض عجيب: فاذا ما سقطت حجارة صغيرة او قطع من الجص، اثارت صدى رنانا، فنهرب اذ ذاك غير ملتفتين الى وراء، وتظل تدوّي من خلفنا وقتا طويلا خبطات، ووقع اقدام، وقهقهات.

وفي ليالي الخريف الصاخبة، حين كانت اشجار الحور الهائلة تتمايل وتهمهم بفعل الرياح التي تهب من جهة الرامتين كان الرعب يتدفق من القصر القديم ويسود المدينة كلها. فيروح اليهود يرددون في هلع: «ويل لنا». وتأخذ العجائز الورعات برسم شارة الصليب. وحين كان جارنا الاقرب، الحدّاد، الذي كان ينكر مع ذلك حتى وجود الارواح الشريرة، يخرج في تلك الساعات الى فناء بيته الصغير، كان يرسم شارة الصليب ويتلو الصلوات تهدئة لارواح الموتى.

ولطالما روى لنا العجوز يانوش، الاشيب اللحية، الذي كان يتخذ من احد اقبية القصر مأوى له، لحرمانه من المسكن، انه كان يسمع بجلاء طول امثال هذه الليالي صيحات منطلقة من تحت الارض. فقد كان الاتراك ينطلقون

في هرج ومرج تحت الجزيرة، فتتقارع عظامهم، وينددون باصوات عالية بوحشية النبلاء البولونيين. واذ ذاك كانت قاعات القصر القديم والانحاء المجاورة له في الجزيرة تدوّي بقعقعة الاسلحة، ويروح النبلاء البولونيون يصيحون بفرسانهم صياحا عاليا. وكان يانوش يميز بكل جلاء، من خلال صخب العاصفة وزمجرتها، ضربات حوافر الخيل وصليل السيوف واوامر القيادة. بل لقد سمع ذات مرة الجد الاكبر المرحوم لكونتات اليوم، الخالد الذكر الى الابد بمآثره الدامية، ينطلق بجواده الى وسط الجزيرة، مزلزلا الارض بنعال هذا الجواد، مرعدا بشتائم: «اسكتوا ايها البلداء، ايها الكلاب الكفرة».

كان احفاد هذا الكونت قد هجروا منذ وقت بعيد مسكن اجدادهم. وكان معظم اموالهم النقدية والكنوز الاخرى التي كانت صناديقهم فيما مضى محشوة بها حتى لتكاد تنفجر، قد اجتاز الجسر فذاب فى البيوت اليهودية المتداعية، واقام آخر ممثلي هذه السلالة المجيدة داراً لهم بيضاء بسيطة، على هضبة تقع في مكان مبتعد عن المدينة.

وهناك كانوا يعيشون حياة من السأم والضجر، الا انها مهيبة، فى عزلة وقورة مزدرية.

ومن حين لآخر فقط، كان الكونت العجوز، وهو طلل قاتم كالقصر القائم فى الجزيرة، يظهر فى المدينة راكبا فرسه الانكليزية الهزيلة. والى جانبه كانت ابنته، وعليها بزة الفروسية السوداء، تمر في الشوارع على ظهر جوادها، متعالية جافة، ومن خلفهما، على بعد مرموق، يسير الفارس التابع. وكان قد كتب على الكونتيس المهيبة ان تظل عانسا. فالشبان، اندادها فى المنبت، كانوا قد تفرقوا في ارجاء العالم في جبن ونذالة، سعيا وراء المال تغدقه عليهم بنت تاجر اجنبي، هاجرين مساكن اجدادهم، او بائعين اياها لليهود للهدم. ولم يكن في البلدة المنبسطة عند سفح قصرها من خاطب تجاسر على ان يرفع عينيه الى الكونتيس الحسناء. اما نحن، الصبية الصغار، فقد كان منظر هؤلاء الفرسان الثلاثة يجعلنا نطير كالعصافير من تراب الشارع الرخص لنتفرق في افنية البيوت، فنتتبع منها، بعيون وجلة يلمع فيها الفضول، سادة القصر الرهيب ذوي السحن الكئيبة المتجهمة.

وعلى الهضبة، من جهة الغرب، كان يقوم بين الصلبان النخرة والقبور الخربة معبد مهجور منذ وقت بعيد. وكان هذا وليد هذه البلدة العادية، الممتدة في الوادي. وعلى قرع الناقوس الرنان، كان ابناء البلدة فيما مضى يجتمعون هنا بملابسهم النظيفة وان تكن غير فاخرة، وفي ايديهم العصيّ بدلا من السيوف التي كان صغار النبلاء البولونيون يجرجرونها في صخب وهم قادمون ايضا على صوت الناقوس التوحيدي من القرى والمزارع الصغيرة المجاورة.

ومن هناك كان المرء يرى الجزيرة بما عليها من اشجار حور جسيمة قاتمة. اما القصر فكان يحتجب عن المعبد، بازدراء محنق، خلف هذه الخضرة الكثيفة، اللهم الا في اللحظات التي كانت فيها الرياح الجنوبية الغربية تتسرب من خلال القصب، فتهب على الجزيرة، وتميل باشجار الحور المزمجرة مؤرجحة اياها، واذ ذاك يرى المرء النوافذ تلمع من خلفها، ويبدو القصر وكأنما هو يلقي على المعبد نظرات سخط وغضب. واما الآن فقد اصبح هذا وذاك جثتين هامدتين. وقد انطفأت عيون القصر، فما عادت تنعكس عليها

اشعة الشمس الغاربة. وتداعى سقف المعبد في بعض الاماكن، وانهارت الجدران، وبات البوم ينعب فيه ليلا نعيبه المشؤوم، بعد ان كان الناقوس المسكوب من النحاس يطلق فيه رنينه الحاد المدوّي.

ولكن الشقاق التاريخي القديم الذي كان فيما مضى يفرق بين قصر النبلاء المتشامخ وبين معبد العامة، استمر حتى بعد ان اتى عليهما الموت: فقد كانت تؤجج نيرانه الديدان التي كانت تعج بها هاتان الجثتان الباليتان، محتلة الزوايا السليمة من السراديب والاقبية. وكان الناس الديدان الرمسية لهاتين العمارتين الميتتين.

فلقد مر وقت كان فيه القصر العتيق ملاذا مجانيا لكل بائس دون اي تحديد. فان جميع الذين كانوا لا يجدون مأوى لهم في المدينة، وكل مشرّد لم يعد في وسعه لهذا السبب او ذاك ان يدفع ولو بضعة قروش تافهة اجرة لزاوية يأوي اليها في الليل وساعة تسوء الاحوال الجوية، هؤلاء جميعا كانوا يتدفقون على القصر مطأطئين رؤوسهم المقهورة بين الانقاض، وغير دافعين ثمنا

لضيافته غير المجازفة بان تنهال عليهم كومة من الانقاض العتيقة. وقد باتت عبارة «يعيش في القصر» وصفا لاقصى درجات البؤس والانحطاط. وكان القصر العتيق يستقبل نزلاءه على الرحب والسعة، فيقدم الدثار للمتسكع الحافي والموظف الصغير المعوز لفترة من الوقت، والعجائز اللواتي لا سند لهن، والمتشردين الذين لا اهل لهم ولا بيت. فكانت هذه المخلوقات جميعا تمزق احشاء المبنى الهرم، مطعمة مواقدها الحطام المنتزع من السقوف ومن بلاط الغرف الخشبي، فتطبخ وتاكل شيئا ما، وعلى الاجمال تؤدي وظائفها الحيوية بصورة غير معروف كنهها.

ومع ذلك، فقد جاءت ايام حدث فيها انشقاق داخل هذه الجماعة اللاطية في كنف الاطلال الخربة، ونشبت بينها ضروب الشقاق. واذ ذاك عمد يانوش العجوز، وقد كان فيما مضى واحدا من «موظفي» الكونت التافهين، الى التماس ورقة رسمية لاعطاء هذه الملكية صفة شرعية، واستلم بيده زمام السلطة. وقد باشر باجراء اصلاحات، وظلت الجزيرة عدة ايام تعج بضجيج وصيحات كان المرء يتساءل معها احيانا

عما اذا كان الاتراك قد انطلقوا حقا من سجونهم تحت الارض لينتقموا من مضطهديهم. ذلك ان يانوش كان ينتقي سكان الخرائب، عازلا الاخيار عن الاشرار. وكان الاخيار، وقد ظلوا في القصر كما في السابق، يساعدون يانوش على طرد الاشرار التعساء الذين كانوا يبدون عبثا مقاومة يائسة. وحين ساد النظام اخيرا الجزيرة من جديد، بمعونة الشرطي الصامتة والفعالة مع ذلك، تبين ان الانقلاب كان ذا طابع ارستوقراطي لا شك فيه. فما ترك يانوش في القصر غير «المسيحيين الاخيار» اي الكاثوليك، ومعظمهم خدم سابقون لسلالة الكونت او نسل خدمه. وكان هؤلاء جميعا شيوخا يرتدون ملابس بولونية قديمة مهترئة، ذوي انوف جسيمة زرقاء يتوكأون على عكاكيز ذات عقد، وعجائز قبيحات نعّارات، الا انهن محتفظات بقبعاتهن وبرانسهن وهن في اقصى درجات الاملاق. فكان هذا كله يؤلف حلقة ارستوقراطية ضيقة متجانسة متراصة كأنما اتخذت لنفسها احتكار البؤس المعترف به. وفي ايام العمل، كان هؤلاء الشيوخ والعجائز يقومون، وهم يتمتمون بالصلوات، بجولة على بيوت ابناء

المدينة الاكثر يسارا ومتوسطي الحال ليتسولوا معتمدين على زاد ضخم من النمائم، والشكاوى، والدموع، وفي ايام الاحاد يؤلفون الجمع الاكثر مهابة من اولئك الاشخاص الذين كانوا يقفون في صفوف طويلة على ابواب الكنائس ويتلقون الصدقات بوقار باسم «السيد المسيح» و«السيدة ام الرب».

وقد اجتذبتنا الضجة والصيحات المنبعثة من الجزيرة اثناء تلك الثورة، فتسللنا الى هناك، انا وبعض الصحابة، واحتجبنا خلف جذوع اشجار الحور الضخمة لنشاهد يانوش على رأس جيش حقيقي من الشيوخ ذوي الانوف الحمراء والعجائز الشرسات القبيحات، وهم يخرجون آخر السكان الذين ينبغي طردهم. كان المساء يرخي ستائره، والمطر ينهمر من سحابة معلقة فوق تيجان اشجار الحور العالية. وكان ثمة بضعة من المساكين الفقراء وعليهم اسمال في اقصى درجات البلى يتسكعون في الجزيرة، مروّعين، في حالة يرثى لها، مغلوبين على امرهم، محاولين كالمناجذ التي طردها الصبية من جحورها، التسلل خفية الى شق من شقوق القصر. الا ان يانوش

والعجائز الشرسات كانوا يصدونهم في كل مكان بالصياح والشتائم، ملوحين بالمحراكات والعصيّ، فيما الشرطي الصامت واقف جانبا وقد تسلح هو ايضا بهراوة ضخمة، محتفظا بحياد مسلح جلي العطف على الظافرين. واخيرا توارى الفقراء المساكين طوعا او كرها في الجانب الآخر من الجسر مطأطئين رؤوسهم في حزن وأسى، تاركين الجزيرة نهائيا والى الابد، متلاشين الواحد إثر الآخر في غسق المساء المبكر الماطر.

ومنذ ذلك المساء المشهود فقد يانوش والقصر العتيق الذي كان له من قبل في نظري جو ينم عن عظمة غامضة مبهمة كل جاذبية لهما في عيني. فقد كنت فيما مضى احب ان اذهب الى الجزيرة وان اتأمل ولو عن بعد جدران القصر الرمادية وسقفه العتيق المغطى بالاشنة. وحين كنت ارى في شعاع الصباح اشباحا شتى تنزلق منه، فتتثاءب، وتسعل، وترسم شارة الصليب في الشمس، كنت اتأملهم بنوع من الاحترام كمخلوقات يكتنفها ما يكتنف القصر كله من ابهام وغموض. كانوا ينامون الليل هناك، ويسمعون كل ما يجري فيه حين كان القمر يطل على الغرف

الرحيبة من ثغرات النوافذ، او حين كانت الرياح توغل منها وقت الاعاصير. فقد كنت شغوفا بالاستماع الى يانوش، وهو جالس في ظل اشجار الحور، يروي بثرثرة العجوز السبعيني امجاد المبنى الميت التليدة. فكانت صور الماضي تنبثق وتنبعث حية في مخيلة طفولتي، مالئة قلبي بحزن مهيب مصحوب برأفة مبهمة على الحياة التي سبق ان انعشت هذه الجدران القاتمة، وكانت اشباح الماضي الغريب الرومانتيكية تنفذ الى روحي الفتية كما تنزلق ظلال السحاب الخفيفة في نهار عاصف على خضرة الحقل الزاهية.

ولكن القصر وشاعره المتغني بامجاده ظهرا لعيني منذ ذلك المساء في ضوء جديد. واذ لقيني يانوش في اليوم التالي قرب الجزيرة دعاني للذهاب الى عنده، مؤكدا في ارتياح ان «ابن مثل هؤلاء الاهل المحترمين» في وسعه من الآن فصاعدا زيارة القصر دون ان تساوره اية مخافة، اذ ان ثمة مجتمعا ملائماً تمام الملاءمة. بل لقد اخذ بيدي الى هناك، الا اني تخلصت منه على حين غفلة وفررت باكيا. فالقصر كان قد اصبح كريها في نظري. ونوافذ الطابق العلوي كانت قد

اعميت بصفائح من الخشب، وبات الطابق الادنى تحت سلطة ذوات القبعات والبرانس. وكانت العجائز تظهر في الخارج بشكل قليل الجاذبية، وكنّ يتملقنني بكثير من اللطف، ويتشاجرن بصخب كنت اتساءل معه في دهشة صادقة كيف كان ذلك المرحوم القاسي، الذي يقمع الاتراك في الليالي العاصفة، يستطيع احتمال هذه العجائز في جواره. ولكني على الاخص، ما كنت استطيع نسيان القسوة الجليدية التي كان سكان القصر الظافرون قد طردوا بها اصحابهم التعساء، وكان قلبي ينقبض لدى تذكر اولئك المساكين الفقراء الذين لا مأوى لهم.

ومهما يكن الأمر فقد تعلمت من مثال القصر العتيق لاول مرة ان ليس بين الجليل والسخيف غير خطوة. كان جلال القصر العتيق قد اختفى تحت اللبلاب، والاشنة، وكان السخيف يبدو لي جد مقرف، ويصدم حساسيتي الوجلة الى حد بعيد، ذلك اني كنت عاجزا اذ ذاك عن تبين الوجه الساخر في هذه المتضادات.

٢. طبائع مبهمة

قضت البلدة بضع ليال جد قلقة بعد الثورة التي حدثت في الجزيرة: كانت الكلاب تعوى، وابواب المنازل تطقطق واهل البيوت يخرجون مرارا الى الشارع، ضاربين الاسيجة بعصيهم ليسمعوا من ينبغي ان يسمع انهم على الحراسة ساهرون. فقد كانت البلدة تعلم ان ثمة اناسا جياعا، مقرورين، مبللين، مرتعدي الاوصال يتسكعون في ظلمات الليل الماطر القاسية، ويدخل في حسبان البلدة ان قلوب هؤلاء الناس لا بد ان تتولد فيها مشاعر حاقدة، فتقف على قدم الاستعداد وترد على ذلك مسبقا بتهديداتها. ولكن الليل كان يهبط، كأنما عن قصد وعمد، مصحوبا بزخة جليدية من المطر، وينسحب مجرجرا فوق الارض ذيولا راكضة من السحب الواطئة. وكانت الرياح تعصف في قلب المطر هازة رؤوس الاشجار، مزعزعة اباجورات النوافذ، مهدهدة لي في سريري بترنيمتها عن جميع هؤلاء الناس المحرومين من الدفء والمأوى.

وانتصر الربيع نهائيا على عواصف الشتاء الاخيرة، وجففت الشمس الارض، وفي الوقت نفسه ذهب المشردون المحرومون من الدفء والمأوى، وما يدري احد الى اين ذهبوا. وخف عواء الكلاب الليلي، وكف اهل البيوت عن قرع عصيهم على الاسيجة، وتابعت حياة البلدة الناعسة الرتيبة مجراها. وكانت الشمس اللاهبة، الجارية في السماء تحرق الشوارع الزاخرة بالغبار، ملجئة بني اسرائيل الشطار الى اطنافهم وهم منصرفون بكليتهم الى التجارة في حوانيت البلدة. وكان «السماسرة» وهم مستلقون تحت الشمس في تراخ وتكاسل، يراقبون المارة بعيون يقظة؛ ومن نوافذ الدوائر الرسمية المفتوحة كان يسمع صرير اقلام الموظفين، وفي الصباح كانت سيدات البلدة يتسوقن حوائجهن بسلالهن، وفي المساء كن يخرجن متأبطات بوقار اذرع ازواجهن، مثيرات غبار الشارع باذيال اثوابهن. وكان شيوخ القصر وعجائزه يذهبون بابهة الى منازل حُماتهم، دون ان يخلوا بالانسجام العام. فقد كان السكان يقرون عن طيبة خاطر بحقهم في الحياة، معتبرين ان من الصواب كل الصواب ان يتلقى البعض الصدقات

في ايام السبت؛ وكان سكان القصر يتناولونها بكل وقار.

واما المنفيون التعساء فانهم وحدهم لم يعودوا يجدون الآن مسارهم في البلدة. صحيح انهم ما كانوا يتسكعون في الشوارع ليلا؛ ولقد كان يقال انهم وجدوا مأوى لهم على الهضبة، بجوار المعبد، اما كيف كانوا يتدبرون امورهم هناك فهذا ما لم يكن احد يعرفه بالضبط. كل ما في الامر ان الناس جميعا كانوا يرون ان الاشباح البالغة اقصى درجات الغرابة والباعثة على الشبهة والارتياب، تلك الاشباح التي تتوارى لدى الغسق من هذه الناحية، كانت تنزل الى البلدة في الصباح من هذه الناحية ذاتها، من التلال والوهاد المحيطة بالمعبد. وكانت هذه الاشباح تعكر بظهورها مجرى حياة البلدة الهادئ الناعس، ملقية على مهاده الاغبر لطخات كئيبة نابية. فكان السكان يرمقونها بنظرة خاطفة منطوية على قلق عدائي. وكانت هي بدورها تكتنف حياة السكان بنظرات اهتمام مضطرب تثير الرعب في نفوس الكثيرين. فما كان هؤلاء الاشخاص يشبهون البتة ارستوقراطيي القصر البائسين، وما كانت

البلدة تعترف بهم ولا كانوا هم يطلبون ذلك؛ فقد كان موقفهم من البلدة ذا طابع عدائي صرف: وقد كانوا يفضلون توجيه الشتائم الى السكان على التملق لهم، ويستطيبون ان يأخذوا هم بانفسهم على ان يسألوا. فهم اما معانون رهيب العسف والاضطهاد حين يكونون الاضعفين، واما منزلون الألم والقهر باهل البلدة حين تكون القوة الى جانبهم. ومع ذلك فما كان من النادر ان تجد بين هذا الجمع المغمور رث الثياب من البائسين افرادا كان في وسعهم، من حيث الذكاء والمواهب الطبيعية، ان يشرفوا النخبة من مجتمع القصر، الا انهم لم يتلاءموا معه وفضلوا المجتمع الدمقراطي في المعبد. وقد كان بعض هذه الوجوه يتميز بسمة من مأساة عميقة.

واني لاتذكر حتى الآن المرح الصاخب الذي كان يهز الشارع هزا حين كان يمر فيه شبح «الاستاذ» العجوز المحني الظهر الغارق في الأسى والكرب. انه رجل مسكين، مسالم، رازح تحت عبء من البلاهة، يرتدي معطفا رسميا عتيقا من الصوف الخشن، ويعتمر بقلنسوة بارزة الطرف الى حد جد بعيد، مزينة بشارة رسمية مسودة.

وكان يبدو ان الرتبة الجامعية قد حلت عليه من وحي اسطورة قديمة غامضة تزعم انه كان يقوم بوظيفة مؤدّب، ولكن ما كان يدري احد اين ولا متى. وما كان في وسع المرء ان يتصور مخلوقا اكثر منه مسالمة واتضاعا. وكان من عادته ان يطوّف بهدوء في الشوارع، دون هدف معين على الاغلب، منطفئ النظرات، مطاطئ الرأس. وكان الفضوليون البطالون يعترفون له بمزيتين يستغلونهما للتسلي والترفيه عن انفسهم بوحشية على حسابه. فقد كان «الاستاذ» يتمتم بينه وبين نفسه تمتمة ازلية، الا ان احداً ما كان يستطيع فهم كلمة مما يقول. وكان يتدفق بالكلام، تدفق الساقية العكرة بخريرها، وعيناه الزجاجيتان تحدقان في السامع كانما تريدان ان تطبعا في روحه معنى خطبه الطويلة غير المفهوم. وكان في الوسع تشغيله كالآلة؛ فكان يكفي لذلك ان يعمل سمسار، ادركه السأم والضجر من الاغفاء والاسترخاء في الطريق، الى مناداة الشيخ وطرح اي سؤال عليه. فاذا بـ«الاستاذ» يصوب اليه عينيه الباهتتي الحدقتين، ورأسه يتهزهز، ويروح يدندن بشيء لا نهاية لأساه. وخلال ذلك كان

يمكن للمستمع ان يذهب بامان واطمئنان بل وان ينام، حتى اذا هو استيقظ وجد ذلك الوجه الحزين القاتم منحنيا نحوه، ما يزال متمتما بحكايات غير مفهومة. على ان هذه الخاصة لم تكن بحد ذاتها امراً ذا بال. والمفعول الرئيسي الذي كان يعتمد عليه الكبار في الشارع انما كان يقوم على سمة اخرى من خلق «الاستاذ»: فما كان المسكين يسمع ذكرا لآلة قاطعة او واخزة حتى يخرج عن دعته وهدوئه. ولذلك كان من عادة المستمع ان يهب واقفا بغتة، وبلاغة «الاستاذ» غير المفهومة في عنفوان تدفقها، فيروح يصيح بصوت حاد: «سكاكين، مقصات، ابر، دبابيس!». فاذا بالشيخ المسكين، وقد انتزع بهذه المباغتة من احلامه، يحفق بساعديه كانه الطير الذبيح، ويضع يده على صدره وهو يلقي على ما حوله نظرة هالعة. وكم من آلام تظل غير مفهومة لدى هؤلاء السماسرة العمالقة لمجرد ان من يتالم عاجز عن ترجمة آلامه الى لكمة بارعة بقبضة يده! فقد كان «الاستاذ» المسكين يكتفي بان يجيل حوله نظرات مطبوعة بأسي عميق، ويقع في الآذان من صوته غم لا

يوصف، فيما هو، وعيناه الكامدتان مصوّبتان على معذّبه، يخدش صدره باظافره في تشنج:

— على القلب... على القلب بالمحجن!.. على القلب في الصميم!..

اغلب الظن انه كان يريد ان يقول ان هذه الصيحات كانت تمزق قلبه، ولكن يبدو ان هذا بالذات ما كان يسلي السكان البطالين عن مللهم وسأمهم بعض التسلية. وعلى عجل، يبتعد «الاستاذ» المسكين، طاويا رأسه كأنما هو يتحامى ضربة توشك ان تهوي عليه، تلاحقه قهقهات انشراح وارتياح، وتظل الصيحات نفسها تدوّي في الجو، كأنما هي لسعات سياط:

— سكاكين، مقصات، ابر، دبابيس!

ولا بد من كلمة انصاف وحق في المنفيين من القصر الذين كانوا على تساند وثيق فيما بينهم، فاذا ما انقض البان* توركيفيتش على الحشد الملاحق لـ«الاستاذ»، يصحبه اثنان

* بان تعني سيد باللغة البولونية. وهي في الاصل لقب النبلاء. — **المترجم**.

او ثلاثة من ذوي الاسمال البالية، ولا سيما زاوسايلوف، وهو صف ضابط متقاعد، فان اكثر من واحد من هذا الجمهور ينزل به عقاب شديد. وقد سبق لصف الضابط زاوسايلوف، وهو عملاق، ذو انف ضارب الى البنفسجية، ونظرات دائمة الحنق والغضب، ان اعلن منذ وقت بعيد حربا سافرة على كل حي، غير معترف بهدنة ولا بحياد. وكلما رأى «الاستاذ» ينزل به الاضطهاد، كان يظل بعد ذلك وقتا طويلا يطلق شتائمه: فيروح اذ ذاك يجوب الشوارع، كأنه تيمورلنك، مدمراً كل ما يقع في طريق غزوه المهول؛ وهكذا كان يمارس المذابح على اليهود قبل قيامها بوقت بعيد، وعلى نطاق واسع: فكان يعذب اليهود الواقعين في قبضته بجميع صور التعذيب، وينزل بالنساء اليهوديات اخزى معاملة، الى ان تنتهي حملة صف الضابط الهمام اخيرا في مخفر الشرطة حيث كان يساق لا محالة بعد معارك حامية الوطيس مع رجال الشرطة. وكان الطرفان في مثل هذه الحال يبديان غير القليل من ضروب البطولة.

وكان ثمة شخص آخر يسلي ابن البلدة بمنظر بؤسه وانحطاطه الا وهو لافروفسكي، الموظف المتقاعد المعتوه كل العته من جراء السكر. ولقد كان السكان يتذكرون وقتا ما يزال غير بعيد، اذ كان الناس لا يخاطبون لافروفسكي الا بـ«ايها البان الكاتب»، واذ كان يتمشى ببزة ذات ازرار نحاسية وحول رقبته منديل زاهي الالوان. وهذه الملابسة كانت تضيف الى منظر انحطاطه الحالي لوناً صارخاً. وكان هذا الانقلاب في حياة البان لافروفسكي قد حدث فجاة: كان كافياً لذلك ان يصل الى كنياجيه ـ فينو ضابط بارز من الفرسان، فما امضى غير اسبوعين وفق خلالهما لاكتساب وخطف فتاة شقراء، هى ابنة صاحب خان غني. ومنذ ذلك الحين لم يعد السكان يسمعون ذكرا للحسناء آنّا، اذ اختفت من افقهم الى الابد. وظلت للافروفسكي مناديله الملونة، الا انه اضاع الأمل الذي كان من قبل يجمّل حياة الموظف الصغير التي يحياها. ولم يعد له وجود في الوظيفة منذ وقت بعيد. واما اسرته، التي كان فيما مضى الأمل والسند لها، فكانت قد

ظلت تقيم في بلدة صغيرة، على انه الآن لا يشغل فكره شاغل. وفي دقائق الصحو النادرة من حياته، كان يمر في الشوارع مسرعا، مسبل العينين، غير ملتفت الى احد، كأنما هو مثقل بعبء الخجل من الحياة التي يحياها؛ كان يسير باسمال بالية، يغمره الوسخ، وقد تشعث شعره الطويل المهمل، نابياً عن الجمهور لاول نظرة، ولافتاً انظار الجميع، فيما يبدو هو نفسه غير ملاحظ احداً ولا ناظراً شيئاً. ومن حين لآخر كان يلقي الى ما حوله نظرات مضطربة تعبر عن الدهشة والاستغراب: ما يبتغي منه هؤلاء الناس الغرباء المجهولون؟ وماذا فعل لهم، وما السبب في انهم يضطهدونه بمثل هذه الضراوة؟ واحياناً، خلال لحظات الوعي الخاطفة هذه، حين يصل الى سمعه اسم الفتاة ذات الضفيرة الشقراء، كانت تهب على قلبه عاصفة من الهيجان والغضب: فكانت عينا لافروفسكي تقدحان بشرر من نار قاتمة على وجهه الشاحب، فينقض على الجمهور، فيسرع هذا الى التشتت. مثل هذه الانفجارات، على ندرتها، كانت تثير فضول المتعطلين الضجرين؛ ولذلك فما كان

بالامر المستغرب، حين كان لافروفسكي يمر في الشارع مسبل العينين ان يرى المرء جمهوراً من البطالين يعترض سبيله، فيجهد عبثاً لاخراجه من جموده، ثم يشرع بدافع من الضجر يمطره بوابل من الوحل والحجارة.

اما وقت يكون لافروفسكي في سكر، فقد كان يبحث بعناد عن ملاذٍ له في الزوايا المظلمة في كنف الاسيجة، ووسط الرامات الآسنة، وسواها من الاماكن الشاذة اذ كان في وسعه ان يكون على يقين من ان احداً لن يلحظه. فكان يجلس هناك، باسطاً ساقيه الطويلتين، مسدلاً على صدره رأسه المقهور. وكانت العزلة والفودكا تبعثان فيه جيشاناً من الصراحة، ولهفة الى البوح بما يرهق نفسه من ألم فادح، فيروح يحكي حكايات لا نهاية لها عن حياته الفتية الضائعة. فكان اذ ذاك يتوجه بحديثه الى الاعمدة الرمادية لسياج عتيق، والى شجرة البتولا الموشوشة في رفق فوق رأسه، والى العقاعق التي كانت تدنو بقفزات قصيرة من هذا الشبح القاتم الذي لا يكاد يتحرك، يحدوها فضول كفضول العجائز الثرثارات.

واذا ما اتفق لنا، نحن الصبية الصغار، ان لقيناه في مثل هذا الوضع، فقد كنا نتحلق حوله في صمت ونستمع بقلوب متفطرة الى حكاياته الطويلة المرعبة. وكنا، وقد قفّ الشعر على رؤوسنا، نتأمل فى خوف هذا الرجل الشاحب الذي يتهم نفسه بكل ما يمكن من الجرائم. كان لافروفسكي، على حد قوله، قد قتل اباه، ودفع بامه الى القبر، وامات اخوته واخواته. وما كان ثمة من سبب يدعونا لعدم تصديق هذه الاعترافات الرهيبة؛ الا اننا كن على دهشة من ان لافروفسكى كان له على ما يظهر عدة آباء. ذلك انه اغمد سيفه في قلب احدهم، وقضى على الآخر بالسم البطيء، واغرق الثالث في هاوية لا يعرف لها مكان. ولقد كنا نستمع اليه ونحن ممتلئون رعباً ورأفة، الى ان يمتنع اخيرا لسان لافروفسكي المشوش عن النطق بالفاظ بينة، ويقطع حبل اعترافاته النادمة نوم رحيم. وكان الكبار يسخرون منا، قائلين إنْ هذا كله الا خزعبلات، اذ ان أبوي لافروفسكي كانا قد ماتا ميتة طبيعية، من جوع ومرض. ولكن حدس قلوبنا، نحن الاطفال، كان يشعرنا

بألم صادق في تأوهاته وتحسراته، وكنا ونحن نأخذ الرمزية على حرفيتها، اقرب مع ذلك الى ادراك السبب الحقيقي لهذه الحياة الضالة عن سبيلها ضلالاً فاجعاً.

وحين كان رأس لافروفسكي يهوي بمزيد من التطامن، وينطلق من حلقه شخير تقطعه شهقات تشنجية، كانت رؤوسنا الصغيرة تنحني على المنكود. فكنا نتطلع بانتباه الى ظلال آثامه وهي تمر على وجهه، فيما كان حاجباه يتقبضان تقبضاً عصبياً وهو مستسلم للنوم، وشفتاه تنضغطان في تكشيرة تبعث على الرثاء، تكاد تكون تكشيرة طفل حزين.

– انا اق–قتل! – كان يصرخ فجأة، شاعراً في غفوته بقلق مبهم من جراء وجودنا، فتلوذ عصبتنا بالفرار في كل اتجاه، وقد استبد بها الخوف والفزع.

وفي هذه الحالات من الاستغراق في السبات كان يترك نفسه للامطار تغمره، وللاتربة تغطيه، بل وللثلج يطمره بكل معنى الكلمة، كما حدث له في الخريف غير مرة؛ واذا كان الموت لم يأخذه قبل الاوان فانما يعود الفضل في ذلك بالتأكيد

للعناية التي كان يلقاها شخصه السوداوي من المناكيد الآخرين، امثاله، ولا سيما البان توركيفيتش المرح الذي كان ينطلق للبحث عنه، مترنحاً، فيهزه، ويوقفه على قدميه، ويجيء به.

كان البان توركيفيتش من فصيل اولئك الناس الذين، على حد تعبيره، لا يستنيمون على المهانة والذل، واذا كان «الاستاذ» ولافروفسكي يحتملان الأذي والألم في صبر واستسلام، فقد كان توركيفيتش رجلا مرحا وناجحا في نواح كثيرة. نذكر اولاً انه من غير التماس تأكيد من احد، قد سمى نفسه فجأة جنرالاً، طالبا من السكان التعظيم الجدير برتبته. وما عتم البان توركيفيتش، اذ لم يجسر احد على الشك في هذا اللقب، ان اقتنع هو نفسه بعظمته، فكان يمشي دائما باقصى درجات الرصانة والوقار مقطباً حاجبيه تقطيبة مفزعة، مظهرا الاستعداد في كل لحظة لسلق وجه احدهم، الامر الذي كان يعتبره الامتياز الاساسي بين امتيازات رتبة الجنرال. واذا ما ساور فكره الغافل من حين لآخر شيء من الشك في هذا الامر، التقط

اول عابر سبيل من السكان في الشارع، فسأله بلهجة تهديد ووعيد:

– من انا في هذه البلدة؟ آ؟

فيجيب ابن البلدة في استكانة، شاعراً بحرجة موقفه:

– الجنرال توركيفيتش!

فيتركه توركيفيتش على الفور، ويروح يفتل شاربيه بابهة وخيلاء:

– تمام!

ولما كانت له بالاضافة الى ذلك موهبة خاصة في تحريك شاربيه، على نحو يذكّر بحركة شاربي الصرصور، وكان لديه ذخيرة لا تنضب من النكات اللاذعة، فلا غرابة في انه كان على الدوام وسط حلقة من المستمعين المتعطلين، بل لقد كانت تفتح له ابواب احسن المطاعم حيث كان يجتمع الملاكون العقاريون المارون بالبلدة حول طاولات البليار. وتقتضينا الحقيقة ان نقول ان البان توركيفيتش كان غالباً ما يطير الى الخارج بخفة رجل مدفوعٍ دفعاً من الخلف على غير احتفال؛ ولكن هذه الحوادث التي كان مردّها الى ما كان ينقص الملاكين العقاريين من

احترام وتقدير للنكتة، لم يكن لها من تأثير على مزاج توركيفيتش العام: فقد كانت الثقة المرحة بالنفس تؤلف وضعه الطبيعي، مضافة الى السكر الدائم.

ولقد كانت الحال الاخيرة تؤلف المصدر الثاني لسعادته: كأس صغيرة واحدة كانت تكفيه زاداً لليوم كله. وكان مردّ هذا الى الكمية الهائلة من الخمرة التي تجرعها توركيفيتش، فاحالت دمه الى ضرب من عصير الفودكا. فما كان الجنرال في حاجة الا الى الابقاء على هذا العصير في درجة معينة من الكثافة لكي يختمر ويغلي في عروقه، فيريه الدنيا جنة من جنان النعيم.

اما اذا حدث، لسببٍ ما، ان ظل الجنرال بضعة ايام دون ان تقدم له كأس صغيرة، فقد كان يعاني من جراء ذلك عذاباً لا يطاق. فكان يقع، اول الامر، في حال من السوداوية والجبانة. وكان الجميع يعرفون ان الجنرال يغدو في مثل هذه اللحظات اضعف من طفل، فيسارع الكثيرون للثأر منه على ما الحقه بهم من مهانات. فكانوا يضربونه، ويغمرونه بالبصاق، والوحل، وهو لا يحاول حتى الخلاص من هذه الاهانات. كان

يكتفي بالولولة ملء حلقه وينهمر سيل من الدموع على شاربيه المنسدلين انسدالا يدعو الى الرثاء. ويروح المسكين يتضرع الى الجميع بان يقتلوه، معللاً هذه الرغبة بانه مقضى عليه بان يموت على كل حال «ميتة الكلب في السياج». واذ ذاك كان الجميع يبتعدون. وفي هذه الاوقات العصيبة كان صوت الجنرال ووجهه ينطويان على ما يرغم اجرأ مضطهديه على الاسراع فى الابتعاد عنه تحاشياً لرؤية ذلك الوجه وسماع صوت هذا الانسان الذي ادرك في لحظة وجيزة مصيره الفظيع ... ثم يتبدل مزاج الجنرال من جديد، فيغدو رهيبا، وتشتعل عيناه بلهب محموم، وينتصب شعره القصير على رأسه. وفجأة يهب واقفا على ساقيه، فيروح يلطم صدره، ويمشي في الشوارع بخطوات مهيبة، معلنا بصوت كهزيم الرعد:

ـ انا قادم... قدوم النبي آراميا... انا آت لاتهام الكفار!

وكان هذا ينبئ بمشهد في منتهى الطرافة. وكان في وسع المرء ان يقول في ثقة ويقين ان البان توركيفيتش كان في تلك اللحظات يؤدي

باعظم قسط من النجاح وظائف رأي عام مجهول في بلدتنا الصغيرة. ولذلك فلا مجال للاستغراب والدهشة من ان يرى المرء اكثر ابناء البلدة وقاراً وانشغالاً ينصرفون عن مشاغلهم اليومية لينضموا الى الجمهور المرافق للنبي الموعود حديثا، او يتتبعوا مغامراته من بعيد على الاقل. وكان من عادته ان يتوجه اول الامر الى دار كاتب محكمة القضاء، فيفتتح تحت نوافذها نوعاً من الجلسة القضائية، مختاراً من بين الجمهور الممثلين اللائقين، المكلفين بتمثيل جهة الادعاء وجهة الدفاع. وكان يلقي بالنيابة عنهم خطباً يرد عليها بالصورة نفسها، مقلداً بكثير من الفن صوت المتهم وحركاته. ولما كان في مقدوره دائما اعطاء المشهد لوناً لاذعاً من الواقع المشهود، ملمحاً الى قضايا معروفة لدى الجميع، ولما كان بالاضافة الى ذلك على كثير من الخبرة في اصول المحاكمات، فما كان بالامر المستغرب ان يرى المرء الطباخة تخرج بعد قليل راكضة من دار كاتب المحكمة، فتدس شيئا في يد توركيفيتش، وتختفي على عجل،

متهربة من كلمات الغزل التي كانت تلقيها عليها حاشية الجنرال. وكان هذا يتناول الهبة ضاحكاً في خبث، ملوحاً بقطعة نقدية تلويح المنتصر، وهو في طريقه الى اقرب حانة.

ومن هناك، بعد ان ينقع ظماه بعض الشيء، يمضي بمستمعيه الى منازل صغار الموظفين، مبدلا تمثيلياته حسب الظروف. ولما كان يتناول في كل مرة اجرة المشهد، فقد كان طبيعياً ان تخف لهجته المنذرة شيئا فشيئا، وتلطف عينا النبي المعتوه، ويستأنف شارباه الاشرئباب الى السماء، ويتحول التمثيل من الدراما الفضاحة الى الاوبريت المرحة. وينتهي عادة امام بيت رئيس الشرطة كوتز. وقد كان اطيب رجل بين رجال السلطة في البلدة على ما فيه من نقطتي ضعف خفيفتين كان الناس يأخذونهما عليه: الاولى، انه كان يصبغ شعره الشائب بالاسود، والثانية، شدة ولعه بالطباخات السمينات، تاركاً كل ما تبقى لمشيئة السماء وبوادر «الشكر» الصادرة عن ابن البلدة طوعاً. وعند بلوغ دار رئيس الشرطة المطلة على الشارع كان توركيفيتش يلقي بقبعته الى السماء، غامزاً

مرافقيه غمزات فرح وبهجة، معلناً بصوت رنان ان هذه الدار لا يقطنها ممثل للسلطة، بل قريب له هو، توركيفيتش، الأب والمحسن.

ثم يشخص بابصاره الى النوافذ وينتظر العاقبة. وكان يمكن لهذه ان تبدو على صورتين: إما ان تخرج ماتريونا البدينة القرمزية من باب الدار في الحال، آتية بالهبة الطيبة من الأب والمحسن، واما ان يظل الباب منغلقاً، وتلمح من نافذة المكتب سحنة شائخة مغضبة في إطار من شعر اسود كالفحم، فيما تنطلق ماتريونا على عجل من ساحة البيت الخلفية الى مخفر الشرطة. وكان المخفر هو المسكن الدائم للجاويش ميكيتا الذي كانت يده بارعة في الضرب وبخاصة في التمرن على توركيفيتش. وفي الحال، كان يترك في تراخ عدة الاسكاف التي يشتغل بها ويهب من مقعده.

واذ يرى توركيفيتش المدائح غير ذات جدوى، يبدأ بالانتقال الى الاهاجي في تدرّج حذر. فكان يشرع عادة بالاسف لكون وليّ نعمته قد رأى من الضروري لأمرٍ ما، تسويد شيبته الوقور بصباغ الاحذية. ثم اذا به، وقد اوغرت

صدره اللامبالاة الكلية ببلاغته، يرفع صوته، ويشدد نبرته، ويروح يتفجر بالتبكيت لولي نعمته على المثال المؤسف الذي قدمه للمواطنين بمعاشرته غير المشروعة لماتريونا. واذ يصل الجنرال الى هذه النقطة الحساسة، يكون قد فقد كل امل بالمصالحة مع وليّ نعمته؛ ولهذا كانت اقواله تصدر عن وحي من البلاغة الحقيقية. وكان من المعتاد، مع الاسف، ان يحدث تدخل اجنبى مفاجىٌ لدى بلوغ الخطاب هذا المقطع: فقد كان وجه كوتز الشاحب الغاضب ينبثق من النافذة، فيما يكون ميكيتا، وقد تسلل بخفة نادرة نحو توركيفيتش، قد تأبطه من خلف بين ذراعيه. وما كان احد من الحضور يحاول حتى تنبيه الخطيب الى الخطر المحدق به، اذ ان اساليب ميكيتا الفنية كانت تثير الحماسة الشاملة. اذ ذاك كان الناس يرون الجنرال، وقد قطع خطابه في منتصف كلمته، يتراقص في الهواء تراقصاً غريباً، وظهره على صلب ميكيتا؛ وما هي الا بضع دقائق حتى يكون الجاويش الشديد البنية قد مضى سائراً باطمئنان نحو نظارة الشرطة، محنياً بالكاد تحت حمله، وسط صيحات تصم الآذان من الجمهور.

وما هي الا دقيقة اخرى، حتى يكون باب المخفر الاسود قد فغر شدقه الفاحم، وحتى يكون الجنرال، وهو يمحص عبثاً بساقيه، قد توارى بأبهة في احشاء النظارة. وكان الجمهور الجاحد يهتف «هورا» لميكيتا، ويتفرق فى بطء.

وفيما عدا هؤلاء الاشخاص البارزين، كانت تأوي الى المعبد جماعة مغمورة من ذوي الاطمار البالية، يثير ظهورهم فى السوق على الدوام قلقا شديدا بين البائعات، فيغطين بضائعهن بأيديهن على عجل، كما تحتضن الدجاجة فراخها حين تظهر الحدأة في السماء. وكانت الشائعات تقول ان هؤلاء المساكين، المحرومين من اي مورد منذ طردهم من القصر، قد ألفوا جمعية جد متماسكة يقترف اعضاؤها سرقات صغيرة في البلدة وما حولها. وكانت هذه الشائعات تقوم في الاخص على اساس لا يدحض من ان الانسان لا يمكن ان يعيش من غير غذاء. وبما ان هؤلاء الافراد المغمورين المحرومين من الوسائل المعتادة للحصول على الغذاء، قد حرموا من الاحسان المحلي على يد السعداء العائشين في القصر، فقد كان لا بد لهم ان يسرقوا او يموتوا. وهم لم

يموتوا، فاذن... ان مجرد بقائهم على قيد الحياة هو البرهان على نشاطهم الاجرامي.

واذا صح هذا، فلا جدال في ان منظم هذه الجمعية ورئيسها لا يمكن ان يكون سوى البان تيبورتسي دراب، ابرز شخصية بين هذه الخلائق الغامضة التي لم تستطع الانسجام مع سكان القصر العتيق.

كان يحيط بمنشأ دراب غموض في منتهى الظلمة. وكان الناس الذين وهبهم الله خيالاً جامحاً ينسبونه لاسم ارستوقراطي لطخه هو بالعار، فكان لذلك مضطراً للتستر، وكان يزعم الى جانب ذلك انه قد اسهم في مآثر كارميليوك* الذائع الصيت. الا انه، اولاً، لم يكن بعد طاعناً في السن الى الدرجة الكافية، ولا كان في مظهره الخارجي، ثانيـاً، ادنى سمة من سمات الارستوقراطية. فقد كانت قامته المديدة الشديدة الاحديداب تبدو دليلاً على ما عاناه من عبء الشقاء الفادح؛ وكانت معالم وجهه الناتئة فظة

* زعيم انتفاضات فلاحية جرت في اوكرانيا في القرن التاسع عشر، ضد الاقطاعيين الاوكرانيين والبولونيين والروس. — **الناشر.**

التعبير وكان شعره القصير المائل الى الشقرة متنفشاً، وجبينه ضيقاً، وفكه الاسفل على شيء من النتوء، وحركية عضلات وجهه تسبغ على سحنته شيئاً من ملامح القرد؛ واما العينان البراقتان تحت الحاجبين الكثين فتحدجان بنظرات قاتمة ثابتة تشع فيهما الى جانب المكر فطنة حادة وحيوية وذكاء نادر. وفيما كانت تمر على وجهه عجائب وغرائب من التكشيرات، كانت عيناه تحتفظان بالتعبير ذاته، الامر الذي كان يجعلني اشعر على الدوام بخوف لا تفسير له وانا ارقب دعابات هذا الشخص الغريب التي كان يبدو انها منطوية على الم عميق لا يقر له قرار.

وكان للبان تيبورتسي يدان خشنتان مغمورتان بالمجل، ورجلان ضخمتان تخبطان في الارض خبط الفلاح في مشيته. ولهذه الاسباب كان معظم الاهلين ينكرون عليه ان يكون من اصل ارستوقراطي، مقرّين في الاكثر انه لا بد كان في عداد خدم احد كبار النبلاء. ولكن كانت تقوم هنا صعوبة اخرى: كيف السبيل لتفسير سعة علمه الخارقة البارزة للعيان. فما من حانة في البلدة لم يلق فيها البان تيبورتسي، من فوق

احد البراميل، تهذيباً للاوكرانيين المتجمعين في ايام السوق، خطباً كاملة عن شيشرون، وفصولا كاملة من خينوفون. وكان الاوكرانيون يصغون فاغري الافواه متناحرين بالاكواع، الى البان تيبورتسي المنتصب باطماره فوق الجمهور، وهو يندد بكاتيلينا، ويصف مآثر يوليوس قيصر او مكر متريدات. وكان الاوكرانيون، وقد وهبتهم الطبيعة خيالا غنياً، يفسرون على هواهم هذه القصائد اللاهبة وان تكن غير واضحة... وحين كان يتوجه اليهم، لاطماً على صدره مشتعل العينين، ناطقاً بهذه العبارة: «Patres conscripti!»* ، كانوا يقطبون حواجبهم هم ايضا ويقولون بعضهم لبعض:

— يا سلام، ما هذا الكلام!

وحين كان البان تيبورتسي يروح بعد ذلك وعيناه شاخصتان الى السقف يستشهد بعبارات طويلة لاتينية لا نهاية لها، كان السامعون ذوو الشوارب الجسيمة يتتبعونه بعطف وجل مشفق.

* «ايها الآباء اعضاء مجلس الشيوخ!» (باللاتينية). — الناشر.

فكان يخيل اليهم اذ ذاك ان روح الخطيب سابحة بعيداً في بقعة مجهولة من بقاع الارض لا يتكلم فيها الناس كلاماً مسيحياً، ويستخلصون من حركاته اليائسة القانطة انها هناك كانت ضحية لمغامرات محزنة موجعة للقلوب. ولكن هذا الاهتمام الودي كان يبلغ ذروته ساعة يحملق البان تيبورتسي ببياض عينيه فيمطر سامعيه بمقاطع طويلة من فرجيليوس او هوميروس. فقد كان صوته اذ ذاك يقصف برعود صاخبة من عالم القبور تجعل الجالسين في الزوايا والاكثر تأثرا بالخمرة اليهودية يحنون رؤوسهم مسدلين النواصي الطويلة المقصوصة على الجبين، ويروحون ينتحبون قائلين:

— اماه، انه يمزق القلب، اخزاه الشيطان! — وعلى شواربهم الطويلة تسيل الدموع المنحدرة من عيونهم.

فلا عجب والحالة هذه ان يقفز الخطيب فجأة من فوق برميله الى الارض، منفجرا بقهقهة مرحة، وتنفرج بغتة اسارير وجوه الاوكرانيين العابسة، وتروح الايدي تبحث في جيوب السراويل العريضة عن قطع النقد الصغيرة. وفي غبطة غامرة

من الخاتمة السعيدة التي انتهت اليها رحلات البان تيبورتسي الفاجعة، تراهم يسقونه الفودكا ويعانقونه، وترن في قبعته قطع النقد النحاسية.

وقد حملت سعة العلم المذهلة هذه على ايجاد فرضية جديدة عن منشأ هذه الشخصية الغريبة، اكثر توافقا وانسجاما مع الوقائع الآنفة الذكر. فقد سلموا بان البان تيبورتسي كان فيما مضى ابن خادم لواحد من الكونتات كان قد بعث به مع ابنه الى المدرسة اليسوعية مكلفا بمهمة صبغ احذية السيد الشاب. وبينما لم يحصل الكونت الفتي الا على ضربات «انضباط» الآباء الاقدسين ذات الذيول الثلاثة، فان الخادم قد حصل على كل الحكمة المخصصة لرأس السيد الشاب.

وبسبب ما كان يحيط بتيبورتسي من اسرار غامضة، فقد كانت تنسب اليه، في عداد المهن الاخرى، خبرة خارقة في فن السحر. فحين كانت «عقد السحرة» * تظهر فجأة في الحقول

* سنابل معقودة من جذوعها. وكان من المعتقدات الشعبية ان هذه العقد هي من فعل الارواح الشريرة. فاذا هي حلت اصيب من يحلها بالمرض. — **الناشر.**

المتموجة كالبحر والممتدة حتى آخر كوخ في الضاحية، لم يكن ثمة احد اكثر اهلية من البان تيبورتسي لانتزاعها من غير ان يتعرض شخصه وكذلك الحصادون للخطر. واذا ما حلت بومة الشؤم مساء على قمة سطح احد المنازل داعية بالموت على هذا المنزل، كان الناس يستنجدون ايضا بتيبورتسي، فيطرد طائر النحس بنجاح عظيم متذرعاً لذلك بتلاوة حكم من تيطس ليفيوس.

وما كان في وسع احد ان يقول من اين ظهر له ولدان. ومع ان الامر كان مستعصيا على التفسير في نظر الجميع، الا ان هذا لم يكن يقلل من وضوحه وجلائه... بل لقد كان ثمة واقعتان: صبي في السابعة الا انه اكبر واوعى من عمره، وبنت في الثالثة. وكان البان تيبورتسي قد جاء بالصبي معه، وبالاصح حمله، منذ الايام الاولى لظهوره هو في افق بلدتنا. واما البنت، فكان قد غاب، للحصول عليها، بضعة شهور في بقاع مجهولة تماماً.

كان الصبي الصغير، واسمه فاليك، وهو طويل نحيل، اسود شعر، يتسكع احيانا في البلدة عابس

الوجه، من غير شاغل معين، واضعاً يديه في جيبيه، مرسلاً الى هذه الجهة وتلك نظرات كانت ترتعد لها باعة الخبز. ومرة واحدة او مرتين فقط، رؤيت الصغيرة على ساعد البان تيبورتسي، ثم اختفت دون ان يعلم احد مكاناً لوجودها.

ولقد كان الناس يتحدثون عن سراديب محفورة في سفح الهضبة، بجوار المعبد؛ ولما كانت امثال هذه السراديب ليست بالامر النادر في هذه البقاع التي غالبا ما اجتاحتها قبائل التتار واغرقتها في النار والدماء، والتي ساد فيها فيما مضى عسف الاقطاعيين البولونيين المنفلت العنان. وكان الهايداماك* البواسل يثأرون منهم في معارك دامية، فقد كان الجميع يصدقون هذه الشائعات، لا سيما وان هذه العصابة من المتشردين المشبوهين لا بد لهم وان يسكنوا في مكان ما. ولقد كانوا في المساء يختفون عادة جهة المعبد. وكان «الاستاذ» يتجرجر الى هناك بخطواته الناعسة ويتجه البان تيبورتسي بمشيته النشيطة

* الهايداماك هم ثوار اوكرانيون ناضلوا ضد الاقطاعيين البولونيين في القرن الثامن عشر. – **الناشر.**

الصارمة؛ والى هناك ايضا كان يذهب توركيفيتش مترنحا مصطحبا معه لافروفسكي وقد بات فريسة للحنق العاجز. وهناك كانت تغوص في عتمة الغسق اشباح مشبوهين آخرين، وما كان ثمة من رجل تبلغ فيه الجرأة حد التجاسر على اللحاق بهم عبر الوهاد الموحلة. وقد كانت الهضبة المحفّرة بالقبور سيئة السمعة. ففي ليالي الخريف الرطبة، كانت تشتعل في المقبرة العتيقة السنة من النار زرقاوية، وفي المعبد كانت الابوام تنعب بصوت قوي حاد يجعل قلب الحدّاد الجسور نفسه ينقبض لسماع صرخات طائر النحس.

٣. أبي وانا

– عيب، يا شاب، عيب!

هذا ما كان يقول لي غالبا شيخ القصر يانوش حين يلقاني في شوارع البلدة ضمن حاشية البان توركيفيتش او بين المستمعين الى البان دراب.

ويروح الشيخ يلوّح بلحيته الشائبة.

— عيب، يا شاب، انك في مجتمع فاسد!.. مؤسف، مؤسف جدا ان يرى المرء ابن ناس محترمين لا يحفظ شرف اسرته.

وبالفعل، لقد كنت نادراً جداً ما يراني الناس في البيت منذ ان ماتت امي وتجهمت سحنة ابي القاسية. وفي ساعة متأخرة من امسيات الصيف، كنت اتسلل الى الحديقة تسلل جرو الذئب متحاشياً اللقاء بأبي، وبعد ان افتح بمعدات خاصة نافذتي نصف المحجوبة بخضرة كثيفة من شجرة ليلاك، كنت أنسل في السرير بحذر. واذا كانت اختي الصغيرة لم تنم بعد في مهدها، في الغرفة المجاورة، فقد كنا نتبادل المداعبات ونلعب من غير ضجيج محاولين عدم ايقاظ المربية العجوز التي تدمدم على الدوام.

وفي الصباح، عند مطلع الفجر، وكل من في البيت نائم، كنت اتسلق السياج، مخلفاً اثاراً رطيبة من الندى على حشائش الحديقة العالية الكثيفة، وامضي الى الرامة حيث يكون في انتظاري صحاب من الصبية الطائشين امثالي ومعهم صنانير صيد السمك، او الى الطاحون حيث يكون الطحان، وعيناه ما تزالان مثقلتين من النوم، قد فتح لتوه

السدود التي يتدفق منها الماء الى المراوح مخدداً سطح مرآته بارتعاشات خفيفة ويباشر كدحه اليومي بهمة ونشاط.

كان يبدو على دواليب الطاحون الضخمة الراجفة، وقد ايقظتها ضربات سيل الماء، كأنما هي قد استسلمت للحركة مرغمة متكاسلة، ولكن ما هي الا بضع ثوان حتى تروح تدور مطلقة الزبد مغتسلة بسيول التيار الباردة. وعلى اثرها تتحرك الاسطوانات السميكة في بطء وجلال، وفي احشاء الطاحون تروح تصخب الدواليب الصغيرة المسننة، وتهدر الارحاء، وتتصاعد من شقوق المبنى العتيق سحب غبار ابيض من الدقيق.

واذ ذاك كنت اتابع طريقي؛ فقد كنت استطيب اللقاء بالطبيعة وهي تستفيق من نومها، وكنت احس بالفرحة اذا ما اتفق ان اجفلت مني قبّرة نائمة او قفز من الاخدود لدى مقدمي ارنب وجل. وفيما كنت اقطع الحقول لبلوغ الغابة في ضاحية البلدة، كانت قطرات الندى تتساقط من تيجان الحشائش والزهور البرية. وكانت الاشجار تستقبلني بوسوسة ناعمة متكاسلة. وفي نوافذ السجن لا تكون قد ظهرت

بعد وجوه السجناء الشاحبة المتجهمة فما يسمع غير السجان مقعقعاً بسلاحه قعقعة صاخبة وهو يقوم بدورة على الاسوار لتبديل الخفراء الذين اعياهم سهر الليل.

ومع اني اكون قد قمت بجولة طويلة، فقد كنت غالبا ما التقي في البلدة باناس لا تزال اثار النوم بادية على وجوههم، وهم يفتحون اباجورات منازلهم. ولكن الشمس تكون قد ارتفعت فوق الهضبة، ومن جهة الرامتين يسمع قرع الجرس الصارخ يجمّع التلامذة، والجوع يدعوني الى البيت لتناول شاي الصباح.

وعلى العموم، كان الناس يدعونني بالمتشرد، والخليع الصغير، ويأخذون عليّ في الغالب شتى الضروب من الميول الفاسدة، حتى لقد انتهى بي الامر الى الاقتناع بذلك انا نفسي. وكان ابى الموقن بذلك هو ايضا يحاول احياناً الاهتمام بتربيتي، الا ان محاولاته جميعا كانت تنتهي الى الاخفاق. فقد كان منظر وجهه القاسي العبوس المطبوع بالميسم الرهيب لألمٍ لا شفاء له، يثير في قلبي الرعب، فانغلق على نفسي. وكنت اقف امامه متأرجحا من قدم الى اخرى، شادا سروالي،

زائغ النظرات. ومن حين لآخر كنت احس كأن ثمة شيئا ما يثور في صدري؛ كنت اشتهي لو يعانقني، لو يجلسني على ركبتيه ويداعبني. اذن لكنت اذ ذاك لطوت الى صدره ولرحنا معا نجهش بالبكاء، الابن والأب القاسي، لذكرى خسارتنا المشتركة. الا ان عينيه اللتين يغشاهما الضباب كان يبدو عليهما انهما تنظران الى ما فوق رأسي؛ وتحت هذه النظرة غير المفهومة كنت انكمش بكل كياني.

ـ أتذكر أمك؟

أ كنت اتذكرها؟ اوه، بلى، كنت اتذكرها! اتذكر كيف كنت، حين استيقظ في الليل، ابحث في الظلمة عن يديها الحلوتين الناعمتين فاحتضنهما واغمرهما بالقبل. اتذكرها طول ايام مرضها، جالسة الى النافذة المفتوحة، مودعة منظر الربيع الرائع في تلك السنة الاخيرة من حياتها.

اوه، اجل كنت اتذكرها!.. حين كانت مسجّاة، مغمورة بالازاهر، صبية جميلة، وميسم الموت على وجهها الشاحب، كنت كالوحش الصغير المتلبد في زاوية ارمقها بعينين لاهبتين تكشف لهما لغز الحياة والموت، للمرة الاولى، بكل هوله.

وبعد ذلك، حين حملوها وسط جمهور من المجهولين، أما ملأ نحيبي ظلمات اولى ليالي يتمي بالانين المخنوق؟

اوه، اجل، كنت اتذكرها!.. وكم استيقظ الآن في فحمة الليل، مفعماً بالحب الذي يزخر به قلبي الفتي، استيقظ وبسمة السعادة على شفتيّ، في جهالة رضية من وحي احلام ذلك العمر السعيد. فيبدو لي انها معي، كعهدي بها من قبل، واني واجد مداعبتها المحببة. بيد ان يدي تمتدان في الظلمة الخاوية فيشوب نفسي شعور بالوحدة المريرة. واروح اذ ذاك اشد بيديّ على قلبي الصغير وهو يخفق خفقاناً موجعاً، وينهمر على وجنتيّ سيل من الدمع السخين.

اوه، اجل، كنت اتذكرها!.. ولكني، إزاء سؤال هذا الرجل العملاق الكئيب، الذي كنت اتمنى، ولكني لا استطيع، ان اشعر لديه بروح قريبة، كنت اعود فادخل قوقعتي، واسحب يدي الصغيرة بلطف من يده.

واذ ذاك كان يعرض عني في غضب أليم. فقد كان يشعر بان ليس له اي نفوذ عليّ، وان بيننا سوراً منيعا لا يمكن اقتحامه. كان شديد الحب

لها، في حياتها، وقد حالت سعادته دون الالتفات الي. والآن، يحجبني عن ناظريه ألمه الممض المرهق.

وهكذا كانت الهوة الفاصلة بيننا تنحفر وتتسع باطراد. وكان يزداد اقتناعا اكثر فاكثر باني صبي صغير فاسد، جاف القلب اناني. وشعوره بان من **واجبه** الاهتمام بي، **الا انه غير أهل** لذلك، وان من **واجبه** ان يحبني، الا انه لا يجد لهذا الحب زاوية في قلبه، كان يزيد ايضا من سوء تصرفاته نحوي. وكنت انا اشعر بذلك. ولقد كنت اراقبه من حين لآخر، وانا محتجب بين شجيرات الحديقة، فيما هو يتمشى في الممرات حانئاً خطاه، يصعّد زفرات خرساء تحت وطاة ألم نفسي لا يطاق. فكان قلبي اذ ذاك يحترق شفقة ورثاء. وذات مرة، جلس على مقعد، ورأسه بين يديه، وراح يجهش بالبكاء. فما تمالكت نفسي عن الخروج من وراء الشجيرات الى الممر، مستسلما للشعور الغامض الذي كان يدفع بي نحو هذا الرجل. الا انه، وقد أُخرِج من تأملاته المظلمة اليائسة، القى علي نظرة قاسية وردّني عنه بهذا السؤال الجليدي:

— انت بحاجة لشيء؟

ما كنت في حاجة لشيء. وسرعان ما اعرضت عنه، وقد اخجلني اندفاعي، وفي نفسي خشية من ان يكون ابي قد قرأ ذلك على وجهي المشوش المضطرب. وهرعت اختفي في اكثف مكان من الحديقة، وارتميت على الارض اعفر وجهي بالعشب وابكي مر البكاء من الأسى والألم.

كنت اعاني هول الوحدة وانا بعدُ في السادسة من عمري.

واما اختي صونيا فكانت في الرابعة. وقد كنت مشغوفا بحبها، وكانت هي تبادلني هذا الحب. ولكن الرأي الذي تكوّن عني، باعتباري شقياً صغيراً وقحاً، قد اقام بيننا ايضا سوراً حقيقياً. وكلما هممت باللعب معها، على طريقتي الصاخبة المرحة، كانت المربية العجوز الغارقة في وسن دائم وفي شغل دائم بنفش الريش للوسائد، وعيناها مغمضتان، تستيقظ من سباتها، فتبادر فوراً للامساك بصونيا واخذها اليها، ملقية علي نظرات محنقة؛ وفي تلك اللحظات كانت تذكرني بالدجاجة الخائفة على فراخها، فيما كنت ارى

نفسي حدأة مفترسة وصونيا فرخ دجاج. وكان ذلك يغيظني مرّ الغيظ. فلا غرابة، والحالة هذه، اذا كنت قد اقلعت بعد قليل عن كل محاولة لتسلية صونيا بالعابي المجرمة، واذا كنت بعد فترة قصيرة قد ضقت ذرعاً بالبيت وبالحديقة الصغيرة حيث لم اكن القى من احد لا استقبالاً حسناً ولا ملاطفة. فبدأت اتشرد. وكان كل كياني يمتلئُ اذ ذاك بحدس غريب بنوع من الاستشفاف للحياة. فكان يبدو لي دائماً انى سأجد شيئاً ما هناك، في هذا العالم الرحب، خلف سياج الحديقة العتيق. كان يبدو لي ان عليّ وفي وسعي ان اعمل شيئاً ما، الا اني ما كنت اعرف ما هو بالضبط. بيد اني، لقاء هذا المجهول المغمض العجيب هب في صميم قلبي شيء راح يستثيرني ويتحداني. ولقد كنت دائماً انتظر الحل لهذه الالغاز واهرب غريزيا بعيداً عن المربية وريشها، وعن الوسوسة الناعسة المألوفة لدي، المنبعثة من اشجار التفاح في بستاننا الصغير، وعن الصخب الابله الصادر عن السكاكين المقطعة للحم في المطبخ. ومذ ذاك انضاف الى نعوتي الاخرى غير المستلطفة نعتان يصفانني باني صبي زقاقي

ومتشرد، ولكني ما كنت لأحفل بذلك. كنت قد
ألفت عبارات التوبيخ والتأنيب، فبتّ احتملها
كما يحتمل المرء وابلاً مفاجئاً من المطر ولفحة
الشمس المحرقة. فكنت اصغي الى التحذيرات
بوجه عابس متجهم، ولا اعمل الا ما يحلو لي.
وفي تجوالي في الشوارع، كنت اراقب، وملء
جوانحي فضول الطفولة، الحياة المتواضعة في
بلدتنا الصغيرة بمساكنها الحقيرة، او اصغي الى
دمدمة اسلاك الهاتف، على الطريق، بعيداً عن
صخب الشوارع، محاولا التقاط الانباء الجارية
فيها من المدن الكبرى النائية، او استمع الى
وشوشة السنابل او همهمة الريح على قبور
الهايداماك العالية. ولطالما توقفت امام صور
الحياة، محملق العينين، وقد اعتراني خوف
موجع... وكانت تنمو في نفسي صورة إثر صورة،
وانطباعاً إثر انطباع، في بقع ساطعة. ولقد
رأيت كثيرا من الاشياء المجهولة التي لا يعرفها
اولاد اكبر مني سناً الى درجة محسوسة، بيد
ان هذا المجهول المنبعث من اعمق اعماق
انفس الطفلة كان ما يزال يملأها بهمس دعاء
مغرٍ غامض لا انقطاع له.

وبعد ان نزعت العجائز الشرسات عن القصر
ما كان له في نظري من مهابة وجاذبية، وحين
بت اعرف جميع زوايا البلدة حتى اقذر ازقتها،
وجهت انظاري اذ ذاك الى المعبد الذي كان يبدو
لعيني من بعيد على الهضبة. فكنت اول الامر
اتلمس الاقتراب منه من مختلف الجهات، شان
الوحش الصغير الخائف، دون ان اغامر بالوصول
الى تلك القمة السيئة السمعة. بيد اني مع
إلفتي لتلك الاماكن، ما كان يبدو لعيني غير قبور
صم وصلبان حل بها الخراب. فلا اثر لمسكن ولا
لوجود بشري. ومن كل شيء كان ينبعث انطباع
يوحي بالاستسلام، والصمت، والاهمال، والفراغ.
وكان المعبد وحده، بالنظرات العابسة التي تطل
بها نوافذه الفاغرة افواهها، يبدو كأنما هو
غارق في تأمل كئيب. ولقد وددت لو اجوبه
كله مستكشفا، والقي نظرة على ما في داخله
لاقتنع نهائيا بان ليس ثمة غير التراب. على انه
لما كان مفزعا وغير ملائم ان اقذف بنفسي
لوحدي في هذه العملية، فقد جمعت من الشارع
زمرة صغيرة من ثلاثة اشقياء، اغراهم الوعد
بان اعطيهم رغيفا من الخبز وتفاحا من حديقتنا.

٤. معرفة جديدة احصل عليها

ذهبنا للرحلة بعد الغداء، ولدى بلوغنا سفح الهضبة شرعنا نتسلقها عن طريق الوهاد الغضارية المحفّرة بمعاول الاهلين وسيول الربيع. وكانت انزلاقات الارض هذه قد عرّت المنحدرات، فكان يبدو هنا وهناك مدر العظام المبيّضة وقد استحالت الى رماد. ومن احد الاماكن كانت تبرز زاوية مهترئة من تابوت ومن مكان آخر تكشر جمجمة بشرية، محملقة نحونا من اعماق وقبيها الاسودين.

واخيرا تسلقنا قمة الهضبة من الوهدة الاخيرة مسرعين، متعاونين. كانت الشمس تميل الى الغروب، واشعتها المائلة تذهّب حشائش المقبرة العتيقة، وتتراقص على الصلبان المحدودبة، وتتلامع في الزجاج الذي ما يزال سليما من المعبد. واما المقبرة المهجورة فكاد يسودها سلام عميق لا تعكره نأمة. وما كنا نبصر هناك لا جماجم، ولا عظام سيقان، ولا توابيت. فقد كان يغطي هولَ الموت وقبحه بساط* يانع الخضرة يترامى نحو البلدة في انحدار سوي لطيف.

وما كان سوانا من احد هناك، اللهم الا العصافير في هرج ومرج من حولنا وطيور السنونو داخلة وخارجة بلا ضجيج عبر نوافذ المعبد العتيق القائم في خمود وفتور وسط قبور طفت عليها الحشائش، وصلبان متواضعة، واضرحة تهدمت حجارتها وامتدت على اطلالها اعشاب متلففة منقشة بازهار الصفّير والدرُق والبنفسج.

— لا احد هنا، — قال احد صحابي.

— الشمس تغرب. — لاحظ آخر وهو يتطلع الى الجرم السماوي الذي لم يكن ينحدر بعد بل ما يزال معلقاً فوق الهضبة.

كان باب المعبد مسدودا سدا محكماً بالواح من الخشب، والنوافذ عالية عن الارض. بيد اني كنت آمل ببلوغها، متسلقا ظهر واحد من صحابي، لأنظر الى ما في الداخل.

— لا ينبغي! — صاح احد رفاقي ممسكاً بيدي، وقد اضاع فجأة كل جسارته.

— رح للقرد، يا بنت! — صرخ به اكبر افراد جيشنا الصغير وسارع يقدم ظهره لي.

فتسلقته بجرأة، ثم نهض واقفاً، واستقرت

قدماي على كتفيه. وفي هذه الحال بلغت يدي اطار النافذة من غير عناء؛ واذ تأكدت من متانته تشبثت به فصعدت الى النافذة وجلست عليها.

– ايوه، ماذا ترى هناك؟ – سألوني من تحت بكثير من الاهتمام.

فما اجبت. ونظرت الى المعبد، وقد ادخلت رأسي من بين القضبان، فتصاعد اليّ صمت مهيب، هو صمت الصومعة المهجورة، لم تكن ثمة اية زينة في داخل المبنى الضيق العالي. وكانت اشعة الشمس الغاربة، المتسربة بحرية من النوافذ المفتوحة، تغطي الجدران العتيقة العارية بزخارف من ذهب ساطع. ورأيت الجانب الداخلي من باب مغلق، ومقاعد لكورس متداعية، واعمدة قديمة متفتتة كأنما هي منحنية تحت عبء غير محتمل. وفي الزوايا المملوءة بنسيج العنكبوت تتكاثف تلك الظلمات التي تجتاح جميع زوايا هذا النوع من الابنية القديمة. وكانت المسافة من النافذة الى الارض الداخلية تبدو اكبر كثيراً مما هي الى العشب في الخارج. فكان يخيل الي اني اغوص ببصري الى هوة سحيقة

غير قادر للوهلة الاولى على تميز الاشياء الغريبة التي ترسم على الارض اشكالها العجيبة الغامضة.

وفي هذه الاثناء كان رفاقي، وقد اضجرهم البقاء تحت، ينتظرون مني الاخبار. وقد قام احدهم بالحركة نفسها التي سبقته اليها منذ لحظة، فجثم الى جانبي متشبثاً بقائمة النافذة. وقال، وقد تفحص احد هذه الاشياء الغريبة المطروحة على الارض:

– انها طاولة المذبح.

– وهذا شمعدان.

– مسند للانجيل.

– وما هذا هناك؟ – سأل مشيراً برغبة في الاطلاع الى شيء قاتم كان يرى الى جانب طاولة المذبح.

– قلنسوة خوري.

– لا بل هو سطل.

– وما شغل السطل هنا؟

– ربما لجمر المبخرة.

– كلا، بل هي قلنسوة. على ان في الوسع النظر. هاك، سنربطك بالاطار بحزام تنزل متمسكاً به.

– يا سلام، انا انزل!.. انزل انت نفسك اذا شئت!

– طيب، وهل تحسب اني لا انزل؟

– هيا انزل!

وبفعل من الدافع الاول، ربطت حزامين ربطا قويا وامررت طرفا منهما من خلال اطار النافذة فسلمته لرفيقي، ونزلت ممسكا بالطرف الآخر. وما مست قدمي الارض حتى انتابتني رعدة. ولكن نظرة الى وجه صاحبي المنحني والمتطلع اليّ باهتمام اعادت اليّ كل جسارتي. وقد اثارت خبطة قدمي صدى مدويا تحت السقف انتشر في فراغ المعبد وزاوياه المظلمة. وطارت بضعة عصافير من مراقدها المعتادة في رواق الكورس وهربت من خلال صدع كبير في السقف انتشر في فراغ المعبد وزاوياه المظلمة. جالسين على نافذته وجه قاس ملتح على جبينه اكليل من الشوك. وكان ذلك مسيحا مصلوبا هائلا، ينظر الي من تحت السقف.

فاستولى عليّ الخوف. وراحت عينا صديقي تشعان بالفضول العاصف والاهتمام. وسألني بصوت خافت:

– هل ستقترب منه؟

– ساقترب، – اجبت باللهجة نفسها ممسكا بزمام جرأتي. ولكن حدث في تلك اللحظة امر غير متوقع اطلاقا.

سمعت اول الامر صدمة وضجيج قطع من الجص ساقطة من رواق الكورس. وفي الاعلى كان يتحرك شيء ما مثيراً سحابة من الغبار، وارتفع جرم رمادي ضخم خافقاً بجناحيه، فبلغ الصدع في السقف. وبدا المعبد غارقا، للحظة، في الظلمة. انها بومة معمرة هائلة، ازعجها ضجيجنا، فانبثقت من احدى الزوايا المعتمة، وظهرت لحظة، منبسطة على مهاد السماء الازرق، ثم انطلقت في انعطاف حاد.

فاعترتني نوبة من هلع عاصف. وصحت برفيقي وانا متشبث بالحزام:

– اسحبني!

فراح يهدئ من روعي وهو يتهيأ لاخراجي الى ضوء النهار والشمس، قائلا:

– لا تخف، لا تخف!

الا ان وجهه علته فجأة قشعريرة من الرعب فاطلق صيحة واختفى قافزاً من النافذة

الى الارض. فالتفتّ غريزياً، فشهدت ظاهرة غريبة شدهتني عجباً اكثر مما شدهتني رعباً.

فالشيء المعتم الذي كنا نتجادل حول ما اذا كان قلنسوة أم سطلا، وظهر آخر الامر انه طنجرة، قد سبح في الجو وتوارى خلف طاولة المذبح على مرأى مني. وما اتيح لي غير ان المح شكل يد صغيرة قد تكون يد طفل.

صعب عليّ ان اصف انطباعاتي في تلك اللحظة: فالشعور الذي احسست به اذ ذاك لا يمكن تسميته حتى بالخوف. لقد كنت في العالم الآخر. ومن مكان غير معروف، قد يكون من الدنيا الآخرة، وصل الى سمعي خلال بضع ثوان، وقع مقلق مستعجل لخطوات ثلاثة اطفال! ولكنه سرعان ما صمت. وكنت لوحدي، كأنما انا في تابوت، اواجه ظاهرات غريبة لا تفسير لها.

ما كان للزمن وجود بالنسبة لي، فليس يسعني لذلك ان اقول متى سمعت اخيرا همسا مكبوتا تحت طاولة المذبح:

— ولِمَ لا يعود للصعود الى فوق؟

— انه خائف، كما ترين.

بدا لي الصوت الاول صوت طفل تماماً، وكان يمكن ان يكون الثاني صوت صبي صغير من عمري. كما بدا لي اني لمحت من شقوق طاولة المذبح العتيق زوجان من العيون السود يلمعان. ومن جديد سمعت الهمس:

— وماذا ينوي الآن ان يفعل؟

— انتظري قليلا لنرى، — اجاب صوت الاكبر.

وتحرك شيء ما بعنف تحت طاولة المذبح حتى لقد ترنح بعض الشيء؛ وفي تلك اللحظة بالضبط انبثق من تحتها شكل آدمي.

كان صبياً في التاسعة، اكبر مني، نحيلا رقيقا كقضيب الخيزران مرتديا قميصا وسخا ويداه في جيبي سرواله القصير الضيق، ينحدر شعره الاسود الاجعد في خصلات طائشة على عينيه الفاحمتين الحالمتين.

ومع ان المجهول ظهر على المسرح بهذه الصورة الغريبة وغير المتوقعة، واقترب مني وعلى وجهه ذلك السيماء من التحدي المفعم غطرسة الذي يواجه الصبية به بعضهم بعضا في سوقنا حين يكونون على استعداد للمعركة، فقد شعرت

بنفسي جد مطمئن لمرآه. ولقد ازدادت اطمئنانا حين برزت من تحت طاولة المذبح، او بالاحرى من عنبر في ارض المعبد كانت تخفيه الطاولة، بنت قذرة شقراء الشعر، كانت عيناها الزرقاوان، وهما تنظران اليّ، تبرقان بفضول الاطفال.

ابتعدت قليلا عن الجدار، ووضعت يديّ في جيبي ايضا، وفقاً لتقاليد الفروسية في سوقنا. وكانت هذه علامة على اني لا اخاف الخصم، بل ابدي له في الوقت نفسه احتقاري.

وتشابكت نظراتنا ونحن منتصبان الواحد في وجه الآخر. فسأل الصبي بعد ان حدجني بنظراته من الرأس حتى القدم:

– ماذا جئت تفعل هنا؟

– فاجبته:

– لا شيء. وما شأنك انت؟

فشال خصمي بكتفيه وتظاهر باخراج يد من جيبه لضربي.

فما رفّ لي جفن. فقال مهدداً:

– انا سأريك!

فقلت له وقد قببت صدري:

– ايوه، اضرب... جرّب!

كانت اللحظة حرجة؛ وعليها كان يتوقف طابع علاقاتنا المقبلة. ورحت انتظر. الا ان خصمي، بعد ان لفني بنظرة فاحصة، لم يتحرك. فقلت له ولكن بلهجة باتت اكثر مسالمة:

– انا، يا اخ، أضرب... ايضا.

وفي هذه الاثناء، كانت البنت، وقد استقرت يداها الصغيرتان على ارض المعبد، تحاول هي ايضا الخروج من العنبر. وقد وقعت على الارض ونهضت عدة مرات واخيرا اتجهت نحو الصبي بخطوات غير ثابتة. وحين وصلت اليه تشبثت به بكل قواها والتحمت بجسده، والقت عليّ نظرة دهشة فيها شيء من الخوف.

وكان في هذا تسويةٌ للحادث؛ فقد كان من الجلي تماماً ان الصبي لا يستطيع القتال في هذه الظروف، وكنت اكرم نفساً من ان أستغل وضعه غير المؤاتي.

– ما اسمك؟ – سألني وهو يداعب بيده رأس الصغيرة الاشقر.

– فاسيا. ومن انت؟

– انا فاليك... وانا اعرفك: انت تعيش في الحديقة قرب الرامة. عندكم تفاح كبير...

– نعم صحيح، التفاح عندنا طيب... أما تريد ان تأكل منه؟

واخرجت من جيبي تفاحتين، برسم جيشي المنهزم في خزي، فقدمت واحدة لفاليك ومددت يدي بالاخرى اقدمها للصغيرة. ولكنها خبأت وجهها وازدادت التحاما برفيقها.

فقال هذا وهو يسلمها التفاحة بنفسه:

– انها خائفة.

ثم سألني:

– لماذا تحشر انفك هنا؟ هل دست حديقتكم بقدمي يوماً ما؟

فقلت له بودّ:

– تعال اليها اذن فذلك يسرني!

فاربك هذا الجواب فاليك. فظل مفكراً. ثم قال في أسى:

– لست من جماعتك، انا.

– ولماذا؟ – قلت له وقد احزنتني نبرة كلامه الكئيبة.

– ابوك هو السيد القاضي.

فقلت له في دهشة صادقة:

– وماذا يعني هذا؟ انك ستلعب معي لا مع ابي.

فهز فاليك رأسه.

– تيبورتسي لن يسمح بذلك.

قال فاليك هذا، الا انه استدرك فجاة، وكأنما قد ذكره هذا الاسم بشيء ما، فقال:

– اسمع... يبدو لي انك صبي طيب، ولكن من الخير لك مع ذلك ان تذهب. فاذا ما وجدك تيبورتسي هنا، فيا ويل!

واعترفت بان الوقت قد حان فعلاً لانصرافي. فقد كانت الخيوط الاخيرة من شعاع الشمس تتواري من خلال نوافذ المعبد، وما كان الدرب الى البلدة بالقصير.

– ولكن كيف سبيلي للخروج من هنا؟

– سأدلك على الطريق. سنخرج سوية.

– وهي؟ – سألته مشيراً باصبعي الى سيدتنا الصغيرة.

– ماروسيا؟ ستأتي معنا هي ايضاً.

– كيف، من النافذة؟

وفكر فاليك لحظة.

– كلا، ولكن هاك: ساساعدك على الخروج

من النافذة، واما نحن الاثنين، فسنخرج من مكان آخر.

وبمساعدة صديقى الجديد صعدت الى النافذة، وحللت حزامي الجلدي، ولففته حول اطار النافذة، وامسكت بطرفيه وتعلقت في الفراغ. ثم ارخيت احد طرفيه، وقفزت على الارض، وسحبت الحزام. وكان فاليك وماروسيا قد باتا في انتظاري عند سفح الجدار.

كانت الشمس قد غابت منذ قليل وراء الهضبة، وباتت البلدة غارقة في عتمة بنفسجية ضبابية، وليس غير رؤوس اشجار الحور في الجزيرة تبرز مصطبغة بلون ذهبي حمراوي، مضاءة بآخر اشعة المغيب. وقد خيل الي ان قد مر على مجيئي الى هنا، الى المقبرة القديمة يوم كامل على الاقل، وان هذا قد حدث بالامس.

– ما احلى هذا! – قلت وقد اسرتني طراوة المساء، ورحت اتنشق بملء صدري هواءه الندي.

فقال فاليك بلهجة حزينة:

– هنا تسأم النفس...

وسألته ونحن الثلاثة ننزل الهضبة:

– انتم جميع ساكنون هنا؟

– نعم.

– ولكن اين بيتكم؟

فما كان في وسعي ان اتصور ان اولاداً يمكن ان يعيشوا بدون «بيت».

وابتسم فاليك بوجهه الكئيب، ولم يجب.

وقد تجنبنا المنحدرات الشديدة، لأن فاليك كان يعرف طريقا اكثر ملاءمة. وبعد ان اجتزنا بين شجيرات القصب مستنقعاً جافاً وعبرنا الساقية على اخشاب متهالكة، وجدنا انفسنا في السهل عند سفح الرابية.

وهنا كان علينا ان نفترق. وبعد ان صافحت صديقي الجديد، شددت ايضاً على يد الصغيرة مصافحاً. وقد مدت لي يدها الصغيرة بلطف، وسألتني وهي شاخصة اليّ بعينيها الزرقاوين:

– هل ستعود الينا من جديد؟

فاجبتها:

– ساعود، ساعود من كل بد!

فقال فاليك في تردد:

– لا باس، تعال اذا شئت. ولكن في الاوقات التي يكون فيها جماعتنا في البلدة، فقط.

— ومن هم «جماعتكم»؟

— ايوه، جماعتنا... كلهم: تيبورتسي، لافروفسكي، توركيفيتش. «الاستاذ»... وهذا بالاجمال غير مزعج.

— طيب، سارى حين سيكونون في البلدة، سآتي اذ ذاك. والآن الى اللقاء!

وما كدت ابتعد بضع خطوات حتى صاح بي فاليك:

— اي، اسمع! لن تثرثر انك كنت عندنا؟

فاجبت بلهجة حازمة:

— لن اقول ذلك لأحد!

— طيب، عال! وقل لمجانينك حين يلحون عليك بالسؤال انك قد رأيت الشيطان.

— طيب، سأقول هذا.

— هيا، الى اللقاء!

— الى اللقاء!

وحين دنوت من سياج حديقتنا، كان يهبط على كنياجيه-فينو غسق كثيف، وفوق القصر يرتسم هلال رقيق، وقد طلعت النجوم. وفيما كنت أتأهب لتسلق السياج، اذا بيد تمسك بي. واذا هو صاحبي الهارب يسألني في همس متوتر:

— فاسيا، ياصاحبي، كيف حالك؟..

— لا بأس، كما ترى... ولكنكم جميعا تركتموني!..

فاسبل عينيه، ولكنه سال من جديد وقد تغلب لديه الفضول على الخجل:

— ايوه، وماذا كان هناك؟

فاجبت بصوت لا يحتمل الشك:

— ماذا كان هناك؟ شياطين، طبعا... واما انتم فجبناء!

وهنا تخلصت من رفيقي الخزيان وتسلقت السياج.

وبعد ربع ساعة كنت قد غرقت في نوم عميق ورحت ارى في احلامي شياطين تقفز بمرح خارجة من العنبر الاسود. وكان فاليك يطردها بقضيب من صفصاف، واما ماروسيا فتضحك بعينيها البراقتين وتصفق بيديها.

٥. التعرف يستمر

ومنذ ذلك الحين باتت افكاري منصرفة كليا الى صديقيّ الجديدين. فساعة انام في

المساء، وساعة استيقظ في الصباح، ما كنت افكر الا بزيارتي المقبلة للهضبة. وما عدت اتسكع في شوارع البلدة الا ومقصدي الوحيد ترصد ما اذا كانت تلك الزمرة التي اطلق عليها يانوش صفة «المجتمع الفاسد» موجودة هناك بكاملها. فاذا ما وجدت لافروفسكي راقداً في بركة من الماء متجمعة في الشارع، وتوركيفيتش وتيبورتسي يخطبان بمستمعيهما، واشخاصاً غامضين يتصيدون في السوق، ابادر فوراً للمسير عبر المستنقع في طريقي الى الهضبة والمعبد، وقد ملأت جيوبي مسبقاً بالتفاح الذي كان لي ملء الحرية في اقتطافه من الحديقة، وبالحلوى التي كنت احتفظ بها دائماً لصديقيّ الجديدين.

ولقد كان فاليك، وهو بالاجمال غلام عميق في جديته، له امائر من الرجولة الكاملة، كانت تبعث في نفسي الاحترام له، يتلقى هذه الهبات ببساطة، وفي كثير من الحالات يبقيها لشقيقته، واما ماروسيا فكانت تشبك يديها كل مرة ويشع في عينيها ألق الغبطة. وكان وجه الصغيرة الشاحب يصطبغ بالوان قرمزية، وتضحك فترنّ ضحكة

صديقتنا الصغيرة في قلبينا رنين المكافأة على تضحيتنا بالسكاكر لها.

كانت مخلوقة نحيلة شاحبة اللون اشبه بزهرة نامية في معزل عن اشعة الشمس. ورغم بلوغها الرابعة من سنيها، كانت ما تزال تمشي بخطوات غير ثابتة على ساقيها الدقيقتين المسترخيتين، مترنحة كالنبتة الطرية. يداها رقيقتان شفافتان؛ ورأسها الصغير يتمايل على عنق طويلة كأنه تويج زهرة جرس الحقول. وعيناها ترشقان احيانا نظرة موسومة بالأسى، ليست بنظرة طفلة. ولقد كانت ابتسامتها من شدة الشبه بابتسامة امي في اخريات ايامها، حين كانت تظل جالسة قبالة النافذة المفتوحة والهواء يعبث بشعرها الاشقر، بحيث كان يتملكني الحزن وتغرورق عيناي بالدمع.

وكنت اقارنها عفويا بشقيقتي، فقد كانتا من عمر واحد، الا ان صونيا كانت عبلة كالحجلة لدنة كالكرة. واذا هي لعبت راحت تركض بسرعة وتضحك ضحكات رنانة، وقد كانت على الدوام ترتدي ملابس جميلة، وكل يوم تضفر المربية جدائلها الكستناوية بشريط قرمزي.

اما صديقتي الصغيرة فلا تكاد تركض ابداً، ونادراً ما كانت تضحك، واذا هي ضحكت كان لضحكتها رنة جرس صغير من فضة لا تسمع من بعد عشر خطوات. وكان لباسها وسخاً عتيقاً، ولا شريط في ضفيرتها، ولكن شعرها كان اطول كثيرا واغزر من شعر صونيا، وقد ادهشني ان فاليك كان يجيد ضفره بكثير من الفن ويقوم بذلك كل صباح.

كنت على جانب كبير من الطيش والشقاوة. وكان الكبار يقولون عني: «ان لهذا الصغير يدين ورجلين مسكوبتين زئبقاً»، وكنت انا نفسي اصدق ذلك، دون ان اتصور بجلاء من الذي اجرى لي هذه العملية وباية صورة. وقد كنت في الايام الاولى ارخي العنان لنشاطي ومرحي في صحبة صديقيّ الجديدين. وما من شك في ان المعبد العتيق لم يسبق له قط ان دوّى بصيحات رنانة كالتي كان يدوي بها حين كنت احاول حفز فاليك وماروسيا وتسليتهما بجرهما الى العابي. ولكني ما كنت اوفق الى ذلك. وقد كان فاليك يتطلع الينا، الصغيرة وانا، بنظرات عليها

مسحة من الجدية، ولقد قال لي اذ كنت ذات مرة احملها على الركض للتسابق معي:

— كلا، انها الآن ستبكي.

وبالفعل، ما ان هززت ماروسيا وحملتها على الركض، حتى التفتت اليّ، وقد سمعت وقع خطاي من خلفها، ورفعت يديها الى رأسها كمن يود اتقاء الضرب، والقت علي نظرة عجز، نظرة طائر وقع في الفخ، وانفجرت تعول بالبكاء. فامتلأت بالحيرة والارتباك. وقال فاليك:

— ارأيت؟ انها لا تحب اللعب.

واجلسها على العشب، وراح يقطف الازهار ويلقيها اليها. فكفت عن البكاء، وراحت تتسلى بالنباتات في هدوء وتقول شيئا ما مخاطبة زهرات زر الذهب، مقبلة الاجراس الزرقاء. وهدأت انا ايضا، واضطجعت بجانب فاليك قرب البنت. وسألت اخيراً مشيراً بعيني الى ماروسيا:

— ما سبب حالتها هذه؟

— ما سبب عدم مرحها؟ — سأل فاليك، ثم اضاف بلهجة تنم عن عميق الاقتناع: — ولكن ذلك من الحجر الاغبر.

وكررت الصغيرة في صدى خافت:

— ن ـ نعم، من الحجر الاغبر.

فسألت اذ لم افهم شيئا:

— ولكن اي حجر اغبر؟

— الحجر الاغبر امتص حياتها من عروقها — قال فاليك شارحاً من جديد ونظره ما يزال شاخصاً الى السماء. تيبورتسي يقول هذا... تيبورتسي يعرف هذا جيداً.

— ن ـ نعم، تيبورتسي يعرف كل شيء — كررت الصغيرة القول كأنها الصدى الضعيف.

ما كنت افهم شيئا من هذه الاقوال الغامضة التي كان فاليك يرددها نقلا عن تيبورتسي، بيد ان التأكيد على ان تيبورتسي يعرف كل شيء قد اثر عليّ. فنهضت على كوعي ورحت انظر الى ماروسيا. كانت تتسلى بالازهار وهي ما تزال على الوضع الذي اجلسها فيه فاليك؛ كانت حركات يديها الواهنتين بطيئة، وتحت جفنيها المسبلين تبرز زرقة عينيها العميقة على شحوب وجهها. ولقد ادركت بجلاء، وانا انظر الى هذا الكائن الصغير الرقيق الكئيب، ان قول تيبورتسي، رغم عدم فهمي لمعناه، ينطوي على حقيقة مرة. فما من شك في ان ثمة من كان يمتص الحياة من

جسم هذه الصغيرة الغريبة التي تبكي ساعة يضحك الآخرون. ولكن كيف كان يمكن لحجر اغبر ان يفعل هذا؟

كان هذا بالنسبة لي لغزاً اشد رهبة من جميع اشباح القصر العتيق. فمهما يكن من هول الاتراك الرازحين تحت الارض، ومهما تكن مخافة الكونت العجوز الذي كان يلجمهم في الليالي العاصفة، فقد كانوا جميعا حديث خرافة. واما هنا، فقد كنت حيال شيء رهيب مجهول. شيء لا شكل له، عديم الرحمة، صلب، قاس، كالحجر، مكبّ فوق رأس الصغيرة يمتص حمرة خديها، وبريق عينيها، وحيوية حركاتها. وفكرت بيني وبين نفسي قائلا: «لا بد ان هذا يحدث ليلاً»، فاعتصرت قلبي شفقة موجعة.

وبتأثير من هذا الشعور، خففتّ انا ايضاً من مرحي وطيشي. وانسجاماً مع الرزانة الهادئة التي كانت تتسم بها سيدتنا، كنا، فاليك وانا، بعد ان نجلسها على العشب، نقطف لها الازهار، ونجمع لها الحصيّات من جميع الالوان، ونلتقط لها الفراشات. او نبني احياناً فخاخاً من الآجر للعصافير. كما كنا، احيانا، ونحن مستلقيين على

العشب الى جانبها، نتطلع الى الغيوم السابحة في اعالي السماء فوق سقف المعبد القديم، ونحن نروي الحكايات لماروسيا او نتحدث فيما بيننا.

وقد كانت هذه المحادثات توثق كل يوم عرى الصداقة المتنامية بيني وبين فاليك برغم ما كان بين طبائعنا من تضاد شديد. فقد كان يواجه غلوائي الجارفة برزانة مكتئبة، ويبعث في نفسي الاحترام له بسطوته وبالنبرة المستقلة التي كان يعرب بها عن رأيه في الكبار. وبالاضافة الى هذا، كان يعلّمني كثيراً من الاشياء الجديدة التي ما كنت حتى افكر فيها من قبل. ولقد سألته اذ كان يتحدث عن تيبورتسي كأنما يتحدث عن صديق:

– تيبورتسي ابوك؟

– الاغلب انه ابي.

هكذا اجاب وعلى وجهه مسحة من التفكير كأنما لم يسبق لهذا السؤال ان خطر له قط من قبل.

– ويحبك؟

– نعم يحبني – اجاب بلهجة أشد وثوقاً –

انه يهتم بي على الدوام، وهو احياناً، لو تعلم، يقبلني ويبكي...

واضافت ماروسيا ووجهها يعبر عن اعتزاز الاطفال:

– وانا يحبنى ويبكى لي ايضاً.

فقلت بلوعة وأسى:

– اما انا فلا يحبني ابي. وما قبلني ابداً... انه سيىءٌ.

فرد فاليك قائلا:

– غير صحيح، غير صحيح! انك لا تفهم. تيبورتسي يعرف احسن منك. يقول ان القاضي خير رجال البلدة وان البلدة كانت تستحق ان تلتهمها الارض منذ وقت بعيد، لو لا ابيك، ولو لا الخوري الذي احتجزوه اخيراً في الدير، ولو لا الحاخام. نعم، بسبب هؤلاء الثلاثة...

– وماذا بسببهم؟

– بسببهم لم تلتهم الارض البلدة، كما يقول تيبورتسي، لانهم يدافعون عن الفقراء... وابوك، لو تعلم، حكم حتى على كونت...

– صحيح... كان الكونت شديد الغضب، وقد سمعته...

— ايوه، أرايت؟ وليس الحكم على كونت بلعبة!

— ولماذا؟

— لماذا؟ — كرر فاليك مرتبكاً بعض الشيء... — لان الكونت ليس واحداً هكذا من الناس... الكونت يفعل ما يشاء، يركب عربة فاخرة، ثم... الكونت يملك المال؛ وكان يمكن ان يدفع لقاض آخر، فلا يحكم عليه، بل يحكم على الفقير.

— صحيح. سمعته يصرخ عندنا في البيت: «استطيع ان اشتريكم جميعا وابيعكم!».

— وماذا قال القاضي؟

— قال له بابا اذ ذاك: «اخرج من هنا!»

— ايوه، أرأيت، أرأيت! وتيبورتسي يقول انه لا يخشى طرد غني، ولكن حين جاءته العجوز ايفانيخا على عكازها طلب ان يقدم لها كرسي. هكذا هو! وتوركيفيتش نفسه لم يثر قط فضيحة تحت نوافذه.

كان ذلك حقاً: فقد كان توركيفيتش، خلال جولاته الفضاحة، يمر دائما في صمت تحت نوافذنا، بل كان يرفع قبعته احيانا.

وقد حملني كل هذا على التفكير العميق. ان فاليك قد جعلنى ارى ابى في ضوء جديد لم يخطر لي قط ان انظر اليه من خلاله: ولقد ضربت اقوال فاليك في نفسي على وتر اعتزاز الابن بابيه. وقد طاب لي الاستماع الى الثناء على ابي، ومن قبل تيبورتسي ايضا، وهو «العارف بكل شيء». ولكن قلبي كانت تهتز فيه، في الوقت نفسه، اوتار حب أليم يشوبه اليقين المرير من ان هذا الرجل ما احبني قط ولن يحبني حب تيبورتسي لولديه.

٦. بين «الحجارة الغبراء»

ومضت بضعة ايام اخرى. وما عاد اعضاء «المجتمع الفاسد» يظهرون في البلدة. وكنت انا اجول في الشوارع عبثا، في ضجر وسام، منتظراً ظهورهم لأهرع الى الرابية. مر «الاستاذ» وحده مرتين بمشيته الناعسة، ولكن لم يظهر لا توركيفيتش ولا تيبورتسي. فكنت في حزن وغم، اذ ان انقطاعي نهائياً عن رؤية فاليك وماروسيا

كان حرماناً كبيراً لي. ولكن فيما انا ذات مرة اسير في الشارع الاغبر مسبل الرأس، اذا بفاليك يضع يده فجأة على كتفي، ويسألني:

— لِمَ لم تعد تجيء الينا؟

— كنت في خوف... جماعتكم لم يعودوا يُرون في البلدة.

— ايوه... ما خطر لي ان اقول لك: جماعتنا غائبون، تعال... وانا قد تصورت شيئا آخر.

— وما هو؟

— كنت اتصور اننا اضجرناك.

فسارعت اقول:

— كلا، كلا... ها انا ذاهب فوراً ومعي تفاح ايضاً.

وعلى ذكر التفاح، التفت فاليك نحوي التفاتة سريعة، كأنما كان يود ان يقول شيئا، الا انه رمقني بنظرة غريبة، دون ان يفوه بكلمة. واذ رآني انظر اليه في تطلع وترقب، قال:

— لا بأس، لا بأس. إمض الى الهضبة مباشرة، وسأذهب انا، خلال ذلك، الى مكان ما، لديّ شغل فيه. وسألحق بك في الطريق.

ورحت اسير في بطء، مكثراً من التلفت، متوقعاً لحاق فاليك بي؛ بيد اني كنت قد صعدت الرابية وبلغت المعبد، اما هو فلم يظهر له أثر. فتوقفت محتاراً: ما كان امامي الا المقبرة، مقفرة صامتة، وليس ثمة اي أثر لحياة بشرية، وليس غير العصافير تزقزق في حرية وانطلاق، وغير ادغال الكرز البري الكثيفة، وشجيرات الليلاك اللاطية بالجدار الجنوبي من المعبد تُسمع وشوشة اوراقها المتشابكة القاتمة.

تطلعت الى ما حولي. الى اين المسير الآن؟ جليّ انه كان لا بد لي من انتظار فاليك. وخلال ذلك، رحت اتمشى بين القبور، متفرجاً عليها بدافع من البطالة والفراغ، محاولا فك طلاسم الكتابات المطموسة على الحجارة المغطاة بالطحلب. وفيما انا اتسكع هكذا من قبر الى قبر، وصلت الى مدخل ضريح واسع اتى عليه الخراب. كان السقف قد انهار او انتزعته العاصفة فانحط على الارض جانبا، والباب مسدودا بحواجز خشبية. وبدافع من الفضول اسندت الى الجدار صليبا عتيقا، وصعدت عليه، ورحت انظر الى الداخل. كان الضريح فارغاً،

الا ان في الارض ثغرة فوقها اطار نافذة من زجاج، ومن خلال هذا الزجاج يبدو فراغ السرداب الفاحم.

وفيما كنت اتفحص القبر، وقد ادهشني وجود هذه النافذة هنا، ظهر فاليك راكضاً على رأس الرابية، لاهثاً متعباً. كان يحمل بين يديه رغيفا كبيراً، وعلى بطنه مكوّم شيء آخر، وقطرات من العرق تسيل على وجهه. فصاح اذ رآني:

– هاها! في هذا المكان انت. الا لو رآك تيبورتسي هنا لغضب! لا محل للكلام الآن... انا اعلم انك صبي طيب ولن تقول لأحد كيف نعيش. فتعال الينا!

– اين، بعيد؟ – سألته.

– سترى. اتبعني.

ونحّى اغصان الليلاك وتوارى في الخضرة عند سفح المعبد. واوغلت خلفه، فوجدت نفسي في فسحة صغيرة من الارض حسنة التسوية، مخفية كلياً وراء اوراق الشجر. ورأيت في الارض، بين جذوع الكرز البري، فتحة على شيء من الاتساع لها درجات من التراب

تنزل الى تحت. نزل فاليك داعيا اياي لاقتفاء أثره، فاذا نحن بعد بضع ثوان في قلب الظلمة، تحت الخضر. واخذ فاليك بيدي ماضياً بي خلال معبر ضيق رطب، ثم انعطفنا فجأة الى اليمين، فاذا بنا في سرداب فسيح.

توقفت عند المدخل، مأخوذاً بمشهد لم يسبق لي قط ان رأيت مثيلاً له. حزمتان من النور منسكبتان من فوق بشكل تنشران به خيوط اشعتهما على باطن السرداب المظلم؛ وكان هذا النور آتيا من نافذتين كنت قد رأيت احداهما في قعر الناووس. والاخرى، وهي ابعد منها، لا بد ان تكون موضوعة على الصورة نفسها. وما كانت اشعة الشمس تتسرب مباشرة الى هذا المكان بل منعكسة اولاً على جدران الاضرحة العتيقة. واذ تنتشر في جو السرداب الرطب، تسقط على البلاط الحجري فتنعكس مالئةً السرداب كله بنور باهت. وقد كانت الجدران ايضاً من الحجر. وكان ثمة اعمدة عالية عريضة شامخة بقوائمها الضخمة، مرسلة اقواسها في كل اتجاه، مترابطة من فوق مؤلفة في السقف بشكل قبة. وقد وقعت عيني على شكلين بشريين،

جالسين على الارض، في مكانين مضائين. «الاستاذ» العجوز يرقعَ اطماره، والابرة بين اصابعه، ورأسه مطاطئٌ، وهو يتمتم بشيء ما بينه وبين نفسه. وحين دخلنا السرداب لم يبادر حتى الى رفع رأسه، ولو لا حركة خفيفة من يديه، لخيل للمرء ان هذا الشبح الاغبر تمثال غريب من الحجر.

وتحت النافذة الاخرى كانت ماروسيا جالسة قرب كومة من الازهار تلعب بها على عادتها، وخيط من نور منسكب على رأسها الاشقر الصغير يغمره، ولكنها كانت مع ذلك تكاد لا تبين على مهاد الحجر الاغبر، فهي تبدو بقعة سديمية غريبة صغيرة توشك على التبدد والتلاشي. وحين كانت السحب تمر فوق الارض، حاجبة نور الشمس، كانت جدران السرداب غارقة كليا في الظلمة تبعث في النفس الشعور بانها تنأى وتهرب الى مكان غير معلوم، ثم تنبعث الحواجز الحجرية القاسية الباردة من جديد فتطبق بخناقها الجبار على شبح الطفلة الضئيل. وبصورة عفوية تذكرت اقوال فاليك عن «الحجر الاغبر» الذي يمتص المرح من عروق

ماروسيا، فانسرب الى قلبي شعور برعب خرافي. وخيل الي اني احس بنظرة الحجر الثابتة النهمة غير المرئية واقعة عليّ وعليها، وان هذا السرداب يحيط ضحيته بحراسة يقظة.

— فاليك! — قالت ماروسيا بصوت رقيق، سعيدة برؤية اخيها.

وحين رأتني لمعت في عينيها شرارة صغيرة حية.

اعطيتها تفاحاتي، وقسم فاليك الرغيف فقدم لها قطعة منه وحمل الاخرى الى «الاستاذ». فتناول العالم المنكود هذه الهبة من غير مبالاة، وراح يلوك لقمته من غير ان يتوقف عن شغله. وكنت اراوح في مكاني وانكمش على نفسي شاعراً كأني مكبل بنظرات الحجر الاغبر الخانقة.

— لنخرج... لنخرج من هنا، — قلت لفاليك وانا اجذبه من كمه.

— تعالي ماروسيا، سنصعد الى فوق. — قال فاليك داعياً شقيقته.

وصعدنا نحن الثلاثة من السرداب، ولكني ظللت احس بالانقباض الشديد حتى وانا على

سطح الارض. وكان فاليك اشد كآبة وصمتاً مما هو في العادة. فسألته:

– ابقيت في البلدة لشراء الخبز؟

فاجاب فاليك مبتسما ابتسامة ساخرة:

– شراء؟ وانّى لي المال؟

– اذن؟ تسوّلت؟

– اي نعم، تسولت!.. ومن يعطيني؟.. كلاّ، يا اخ، نشلته من دكان اليهودية سورا في السوق! لم تَرني.

قال هذا بلهجة عادية، وهو مستلق بكل طوله على الارض، ويداه مشبكتان تحت رأسه. فنهضت على كوعي ونظرت اليه.

– اذن سرقت؟

– اي نعم!

ومن جديد القيت بنفسي على العشب ولبثنا دقيقة صامتين. ثم قلت وانا غارق في تفكير كئيب:

– السرقة غير حسنة.

– جماعتنا كانوا جميعا قد خرجوا... وكانت ماروسيا تبكي من الجوع.

– نعم، كنت جائعة! – أكدت الصغيرة بلهجة ساذجة يتفطر لها القلب.

ما كنت اعرف بعد ما الجوع، ولكني حين سمعت الكلمات الاخيرة التي فاهت بها الصغيرة، شعرت كأن طعنة قد اغمدت في صدري، ونظرت الى صديقيّ كأني اراهما للمرة الاولى. كان فاليك ما يزال مستلقياً على العشب، يلاحق باشقاً محوّماً في السماء، وعلى وجهه سيماء التفكير. ما كان اذ ذاك في مثل تلك السطوة التي كانت له عليّ؛ ولدى رؤيتي ماروسيا ممسكة بيدها قطعة الخبز شعرت بالألم يعتصر قلبي. فسالت في جهد:

– ولكن لماذا؟ لماذا لم تقل لي؟

– هممت ان اقول لك، ولكني غيرت رأيي؛ انك لا تحمل نقودا.

– طيب، وماذا يؤثر ذلك؟ كنت جئت بخبز من البيت.

– كيف، خفية؟..

– ز– نعم!

– اذن، تكون انت ايضا قد سرقت.

– انا... من ابي.

فقال فاليك بلهجة موقنة:
– وهذا اسوأ! انا لا اسرق ابي ابداً.
– ايوه، كنت طلبت... ولكانوا اعطوني.
– نعم، ربما اعطوا لمرة واحدة. ولكن كيف السبيل لاطعام جميع المساكين؟
فسالته بصوت خافت:
– اذن، انتم... مساكين؟
– تمام! – قال فاليك متجهماً.
ولبثت صامتا، ثم قمت مودعاً بعد بضع دقائق. فسال فاليك:
– أذاهب انت؟
– نعم، ذاهب.
ولقد تركتهما لاني ما كنت في ذلك اليوم بقادر على اللعب مع صديقي منطلق النفس كعهدي من قبل. فقد مرت سحابة عكرت بقتامها صفو حبي الطفولي... لم يضعف شغفي بفاليك وماروسيا الا انه بات الآن مشوبا بمذاق لاذع من الاشفاق الأليم. واذ عدت الى بيتي، لجات مبكرا الى الفراش، لاني ما كنت بقادر على تحمل هذا الشعور المرهق الجديد

الذي كان يملأ نفسي. وغصت بوجهي في وسادتي ورحت ابكي مر البكاء الى ان غرقت اخيراً في نوم ثقيل بدد حزني العميق.

٧. البان تيبورتسي يدخل المسرح

– مرحبا! كنت احسب انك لن تعود.
هكذا استقبلني فاليك غداة اليوم التالي، لدى ظهوري على الرابية من جديد.
ففهمت سبب قوله هذا. واجبت بحزم بغية حسم هذه المسالة نهائيا:
– كلا، اني... اني ساجيء اليكم دائماً.
فاشرق وجه فاليك اشراقاً ملحوظاً، وشعرنا كلانا بمزيد من الارتياح. وسألته:
– اي نعم، ماذا؟ اين جماعتكم؟ الم يعودوا بعد؟
– كلا لم يعودوا بعد. الشيطان يعلم اين ذهبوا يندسون.
وانصرفنا نبني بمرح فخاً متقناً للعصافير جئت له معي بسلك. واعطينا السلك لماروسيا تمسكه، فاذا ما جازف عصفور طائش، أغراه

الحب، فدخل المصيدة قافزاً قفزات صغيرة غافلة، شدت ماروسيا السلك، فوقع الفخ على الطائر، فنعتقه فيما بعد.

وفي هذه الاثناء، اكفهرت السماء قرابة الظهيرة، وقد غطتها سحابة سوداء، فامتزج خشيش وابل المطر بقصفات الرعد المرحة. وكنت اول الامر في نفرة من النزول الى السرداب، الا اني تغلبت على نفرتي حين فكرت بان فاليك وماروسيا يتخذان منه مسكناً لهما، فمضيت اليه معهما. كانت الظلمة والسكينة سائدتين في السرداب، ولكننا كنا نسمع من فوق هدير العاصفة الصاخب كان فوق رؤوسنا من يجري بعربة هائلة على طريق عظيمة الاتساع. وبعد بضع دقائق ألفت السرداب، ورحنا نصغي بمرح الى الارض وهي تتلقى سيول الامطار. وقد كان الضجيج وقصف الرعد المتواتر يرهفان اعصابنا، ويبعثان فينا نشاطا في حاجة الى منفذ له. فاقترحت قائلا:

ـ هلما نلعب بالغمّيضة.

فعصبا عينيّ؛ وراحت ماروسيا، وهي ترن بضحكتها الواهنة تطبطب على الارض بقدميها

الصغيرتين الرجراجتين، وكنت انا اتظاهر بالعجز عن الامساك بها حين اصطدمت بغتة بشيء مبتل وشعرت في الحال ان أحداً قد امسك بساقي. وحملتني يد قوية عن الارض، فوجدت نفسي معلقاً في الفضاء، ورأسي الى تحت. ووقعت العصابة عن عيني.

كان تيبورتسي المبلل المحنق، وقد بدا لعيني اشد رهبة وانا انظر اليه من تحت، يمسك بساقي وينظر اليّ ويدور بحدقتيه بصورة وحشية.

ـ ما هذا ايضا، آ؟ ـ سأل بقسوة، وهو ينظر الى فاليك ـ انكما، على ما ارى، تقضيان وقتكما بمرح... برفقة طيبة.

ـ اتركني! ـ قلت له وانا في دهشة من قدرتي على الكلام في ذلك الوضع، ولكن يد البان تيبورتسي شددت من قبضتها على ساقي.

ـ Responde اجب! ـ قال بلهجة تهديد، مخاطباً فاليك، الذي ظل، في هذا الوضع الحرج، جامداً في مكانه، داساً اصبعين في فمه، كأنما ليدل بذلك على انه عاجز كل العجز عن اعطاء اي جواب.

على اني قد لاحظت فقط انه كان يتتبع، بنظرة تنم عن العطف واشد الرثاء، حركة شبحي المنكود وهو ينوس كالرقاص في الفضاء.

رفعني البان تيبورتسي ونظر الى وجهي.

— هي هي! السيد القاضي ان لم تخدعني عيناي... ما الذي جعلنا نستحق شرف زيارتكم؟

فقلت له بعناد:

— اتركني! اتركني حالاً!

وقمت، وانا اقول هذا، بحركة غريزية لدق الارض، دون ان يكون لذلك من نتيجة غير اني رحت امحص في الفضاء بكل جسدي.

وانفجر تيبورتسي مقهقها.

— ها — ها! السيد القاضي يغضب... اي نعم، انك لا تعرفني بعد.* Ego sum تيبورتسي ساشنقك هكذا فوق نار واشويك شي الخنوص.

واخذت افكر بان هذا لا بد حتما ان يكون مصيري، لا سيما وقد كان في سحنة فاليك اليائسة ما يبدو كانه التاكيد لمثل هذه النهاية المحزنة. ولحسن الحظ، اقبلت ماروسيا لنجدتي. وراحت

* تعبير لاتيني يعني: انا تيبورتسي. — **الناشر.**

تقول لي مشجعة وقد اندست بين ساقي تيبورتسي:

— لا تخف، فاسيا، لا تخف. انه لا يشوي الصغار بالنار ابداً... كذب!

وادارني تيبورتسي فجأة، واوقفني على قدمي. فكدت اقع، لأن الدوار كان قد اخذ برأسي الا انه اسندني بيده، وجلس على قطعة من خشب وامسكني بين ساقيه. وتابع يستجوبني:

— وكيف جئت الى هنا؟ من وقت بعيد؟

ولما لم اجب قال لفاليك:

— تكلم انت!

— من وقت بعيد، — اجاب فاليك.

— يعني؟

— من ستة ايام.

وقد بدا ان هذا الجواب بعث في نفس تيبورتسي شيئا من الارتياح. فقال وقد ادار وجهي اليه:

— اوه! ستة ايام! ستة ايام، مدة طويلة. وحتى الآن لم تحك لأحد اين تذهب؟

— كلا، لم احك لأحد.

— صحيح؟

فكررت قائلا:

– لم احك لأحد!

– هذا ما تحمد عليك، Bene... يمكن الاعتماد على انك لن تثرثر في المستقبل ايضا. وقد كنت، في الحق، اعتبرك دائما صبياً صغيراً طيبا، حين كنت القاك في البلدة... صبي «زقاقي» حقيقي، مع انك قاضي... أستحاكمنا؟ قل!

كان يتكلم بشيء من اللطف، ولكني كنت مع ذلك اشعر بكثير من المهانة، ولذلك فقد اجبت بشيء من الغضب:

– ما انا ابداً قاض. انا فاسيا.

– هذا لا يمنع ذاك، وفاسيا يمكن ايضا ان يصبح قاضياً، ان لم يكن الآن، ففيما بعد... هكذا هي الحال منذ القدم، يا اخ. هاك: انا تيبورتسي، وهو فاليك. انا مسكين، وهو مسكين. انا، بصراحة، اسرق، وهو سيسرق ايضا. ابوك يحاكمني، وانت ذات يوم... ستحاكمه.

فاجبت مكتئبا:

– انا لن احاكم فاليك. كذب!

– لا، لن يحاكم – قالت ماروسيا باقتناع تام تدفع عني هذه التهمة الرهيبة.

كانت الصغيرة تشد نفسها بثقة على ساقي ذلك الغول، وهو يداعب شعرها الاشقر بيده الخشنة.

ثم قال هذه الرجل الغريب، وعلى وجهه سيماء التفكير، يخاطبني بلهجة من يتحدث مع راشد:

– لا تضمن هذا للمستقبل. لا تضمن هذا، amice* !.. هكذا هي الحال منذ قرون، لكل شأنه، suum cuique ، كلٌ يتبع دربه، ومن يدري... لعل من الخير ان يكون دربك قد التقى بدربنا. وفي هذا خير لك، amice وأن تكون في الصدر نتفة قلب بشري خير من ان يكون فيه حجر بارد، مفهوم؟

ما كنت افهم شيئا البتة، ولكني كنت احملق بنهم في وجه هذا الانسان الغريب؛ وكانت عينا البان تيبورتسي تحدقان باصرار في عيني، فارى فيهما شيئاً ذا بريق غامض ينفذ الى قلبي.

– لست تفهم، بالطبع، لأنك ما تزال

* يا صديقي (باللاتينية). – **الناشر.**

صغيراً... ولذلك اقول لك ذلك باقتضاب، ولكنك ستتذكر يوماً ما كلام تيبورتسي الفيلسوف؛ فاذا ما اتفق لك يوماً ان تحاكم هذا فتذكر اذ ذاك انك يوم كنتما معاً صغيرين، وتلعبان معا، كنت تسلك الدرب مرتدياً بنطالاً وفي حوزتك زادك، اما هو فكان يركض في دربه صعلوكاً ليس عليه ما يستر مؤخرته، وبطنه خاو... ولكن، بانتظار ذلك – قال مبدلا لهجته فجاة – تذكر هذا ايضاً جيداً: اذا ما حكيت لقاضيك، او حتى لطير البراري فقط، وهو يمر قربك، عما رأيت هنا، ايوه، فاني لا اكون تيبورتسي دراب اذا لم اشنقك على هذا الموقد من رجليك ولم ادخنك كفخذ الخنزير. آمل، بانك فهمت هذا جيداً؟

– لن اقول هذا لأحد... انا... وهل يمكن ان اعود؟

– عد، اني اسمح بذلك... sub conditionem* على انك ما تزال احمق، فلست تفهم اللاتينية. لقد سبق وانذرتك: كفخذ الخنزير. فتذكر!

* على شرط (باللاتينية). – **الناشر.**

١٠٢

وافلتني ومضى يستلقي على مقعد طويل لصق الجدار.

– خذ هذه هناك – قال لفاليك مشيراً الى سلة كبيرة كان قد تركها في العتبة لدى دخوله – واشعل النار سنطبخ اليوم غداء.

لم يعد ذلك الرجل الذي كان منذ دقيقة يفزعني بحملقة عينيه، ولا البهلول الذي يسلي الجمهور لقاء حسنات يتصدقون بها عليه. كان يتصرف تصرف رب عائلة في بيته، يصدر اوامره لاهل البيت لدى عودته من عمله.

كان يبدو عليه الكثير من العناء. وكانت ثيابه مبتلة من المطر، وكذلك وجهه. وكان شعره متلبداً على جبينه، وكل هيئته تنم عن رهق شديد. وكنت للمرة الاولى ارى هذا التعبير على وجه خطيب حانات البلدة المرح. وهذه النظرة التي كنت القيها للمرة الثانية وراء الكواليس – على الممثل المنصرف الى الراحة، بعد ان انهكه الدور المرهق الذي قام بادائه على مسرح الحياة، قد بعثت في نفسي شعوراً بالفزع. وكان هذا اكتشافا آخر من الاكتشافات التي اسفر لي عنها المعبد العتيق التوحيدي بكثير من السخاء.

وانصرفنا، فاليك وانا، الى العمل بنشاط. اشعل فاليك كسارة خشب، ومضيت معه الى معبر مظلم يؤدي الى السرداب. وكانت هناك في احدى الزوايا اكوام من قطع الخشب نصف المتهرئة، ومن حطام الصلبان، ومن الصفائح الخشبية العتيقة؛ فلم نأخذ غير بضع قطع من هذه المؤونة، فوضعناها في الموقد واشعلناها. ثم تنحيت تاركاً فاليك يعد الطعام لوحده بيديه البارعتين. وما هي الا نصف ساعة حتى كان يغلي في الطنجرة نوع من الشوربة. وبانتظار نضجها، وضع فاليك على أثفية مصنوعة كيفما اتفق مقلاة تدخن فيها قطع من اللحم المشوي.

ونهض تيبورتسي، فقال:

— جاهز؟ طيب، عال جداً. اجلس معنا، يا صغيري، فقد كسبت غداءك... — ثم صاح مخاطباً «الاستاذ» —: Domine preceptor!* دع إبرتك، وهلمّ الى المائدة.

— لحظة — قال «الاستاذ» بصوت خافت، فادهشني بجوابه الواعي هذا.

* حضرة الاستاذ. — الناشر.

على ان لمعة الوعي التي بعثها فيه تيبورتسي لم تظهر بعد ذلك قط. فقد غرز الشيخ ابرته في الاطمار التي كان يرقعها، واقبل بلامبالاة، ونظرات منطفئة، فجلس على خشبة من الاخشاب الجسيمة المتخذة كراسي في السرداب.

كان تيبورتسي يحمل ماروسيا في حضنه. وكانا هي وفاليك ياكلان بنهم يدل بجلاء على انهما يريان في أكل اللحم ترفاً منقطع النظير. وكانت ماروسيا تلعق اصابعها المغمورة بالدهن، وتيبورتسي ياكل على مهل، وهو يكثر من توجيه الكلام الى «الاستاذ» رضوخا منه لحاجة الى الحديث لا تقهر. وكان العالم المنكود يوجه اليه انتباهاً مدهشاً ويصغي اليه، محنيّ الرأس، مفكراً كما لو كان يفهم كل كلمة. بل لقد كان في بعض الاحيان يعبر عن موافقته بهزات من رأسه هامساً باصوات خافتة لا حروف لها.

— ما اقل، domine، ما يحتاج اليه الانسان، — قال تيبورتسي — أليس صحيحاً؟ ها نحن قد شبعنا، ولم يبق لنا غير الحمد لله ولكاهن كليفا...

— ها، ها! — اقر «الاستاذ» وهو يهز رأسه.

— انت، domine، تقر بدافع من الثقة، بيد انك لا تدرك اية مأثرة لخوري كليفا، — اعرفك انت... ولكننا، لولاه، لما تناولنا اليوم اللحم المشوي وما الى ذلك...

فسألت متذكرا وجه «السيد الخوري» المدور الزاخر بالطيبة، وقد كان يتردد على ابي:

— خوري كليفا اعطاكم اياه؟

فتابع تيبورتسي كلامه وهو ما يزال يوجه الحديث الى «الاستاذ»:

— هذا الصغير يبرهن عن ذهن محب للاطلاع. هذا كله، بالفعل، هبة من الكاهن المحترم، مع اننا لم نطلب ذلك منه، وربما لم تدر يده اليسرى بما قدمت اليمنى، وليس هذا وحسب، بل قد لا يكون حتى لدى الاثنتين ادنى فكرة عن ذلك... كل domine كل!

كل ما فهمت من هذا الكلام الغريب المعمى ان طريقة الحصول لم تكن مما هو مألوف تماما، فما استطعت الامتناع عن توجيه سؤال جديد:

— اخذته... بنفسك؟

فاستمر تيبورتسي يتحدث على النسق نفسه:

— هذا الصغير غير خال من حصافة الذهن، الا ان ما يؤسف له فقط هو انه لم ير الكاهن: فان لهذا الاخير كرشا كالبرميل الحقيقي، وثمة كل ما يحمل على الظن ان في مسرات الفم اكبر الضرر والأذى له، فيما نحن جميعا، الحاضرين هنا، نعاني بالاحرى هزالا مفرطا. فلا يسعنا لهذا ان نعتبر بعضا من الغذاء نافلة من النوافل... أليس صحيحا ما اقول، domine؟

— ها، ها! — تمتم «الاستاذ» من جديد، وعلى وجهه سيماء التفكير.

— ايوه هكذا! لقد عبرت عن رأيك هذه المرة فاجدت التعبير ايما اجادة، وفي هذا كل الخير فقد اخذت اعتبر ان لهذا الصغير ذهنا اشد يقظة مما لدى بعض العلماء... ولكن اعود الى الحديث عن الخوري، فاقول ان الدرس الطيب، في اعتقادي، يستحق الاجر، وفي وسعنا القول، والحالة هذه، اننا قد اشترينا منه هذه الاغذية: فاذا هو عمد، بعد هذا، الى تدعيم ابواب سقيفته، فاننا نكون اذ ذاك قد صفينا الحساب...

وتابع يقول وقد التفت اليّ بغتة:

— على انك ما تزال غرا، وثمة اشياء كثيرة

لا تفهمها. ولكن هذه تفهم: فقولي، يا صغيرتي ماروسيا، هل احسنت صنعاً بان جلبت لك لحماً مشوياً؟

— مليح! — اجابت الصغيرة وعيناها الفيروزيتان تشعان ببريق خفيف — ماروسيا كانت جائعة.

عدت الى البيت قبيل المساء من ذلك اليوم مثقل الرأس بالتفكير. وما كان لخطب تيبورتسي الغريبة من أثر في زعزعة يقيني بان «السرقة سيئة». بل لقد اشتد الاحساس الموجع الذي كان ينتابني من قبل. مساكين... لصوص... اناس لا مأوى لهم!.. وقد كنت اعلم من محيطي، منذ وقت بعيد، ان هذا كله امر يستدعي الزراية والاحتقار. بل لقد كنت اشعر بكل سخيمة الاحتقار تنبجس من اعمق اعماق نفسي، الا اني كنت اذود عن محبتي غريزياً صاداً عنها هذا المزيج المر، غير ممكن لهما من التشابك والاختلاط. وما كان لعمل بصيرتي المشوش هذا من اثر غير اشتداد واستفحال ما في نفسي من اشفاق على فاليك وماروسيا، واما تعلقي بهما فلم ينمح. وظلت صيغة «السرقة سيئة» قائمة.

بيد اني حين كنت اتخيل وجه صديقتي الصغيرة المنتعش، وهي تلعق اصابعها المغمورة بالدهن، كنت اشعر بالغبطة لفرحها وفرح فاليك.

التقيت بأبي بغتة في ممر مظلم من ممرات الحديقة. كان يتمشى ذهابا وايابا على عادته مجيلا فيما حوله نظرته الغريبة المغشاة بعض الشيء. وحين وصلت الى قربه امسك بي من كتفي.

— من اين انت قادم؟

— انا... كنت اتنزه...

فنظر اليّ بامعان، وهمّ بان يقول شيئا، ثم غامت نظرته من جديد، واستأنف نزهته وقد اتى بحركة من يده. يبدو لي اني كنت افهم معنى هذه الحركة حتى في ذلك الحين:

— ما يهم... **هي** لم تعد في الوجود!

لعل هذه اول مرة كذبت فيها في حياتي.

كنت دائما على خوف من أبي، وقد بت اخافه اذ ذاك اكثر من اي وقت مضى. ومنذ ذلك الحين اصبحت احمل في نفسي عالماً من الاسئلة والمشاعر المشوشة. فهل كان بوسعه ان يفهمني؟ وهل كان بوسعي ان اعترف له باي شيء دون ان اخون اصدقائي؟ كنت ارتعد حين

افكر بانه قد يعلم ذات يوم بما لي من علاقات مع «المجتمع الفاسد»، اما خيانة هذا المجتمع، اما خيانة فاليك وماروسيا، فكان يستحيل عليّ اقترافها. كانت تلك مسالة «مبدئية» نوعاً ما: فاذا انا خنتهما، حاشاً بعهدي لهما، فلن يكون في وسعي قط، خجلا وحياء، ان ارفع اليهما بصري اذا ما التقيت بهما.

٨. في الخريف

كان الخريف يقترب. اعمال الحصاد تجري في الحقول، واوراق الشجر تصفرّ. وفي ذلك الوقت، اخذت تعتل صحة صغيرتنا ماروسيا.

لم تكن تتوجع من شيء، ومع ذلك كانت تزداد نحولاً باطراد. وفي وجهها المتزايد الشحوب، اتسعت عيناها القاتمتان، وبات جفناها يرتفعان بعناء.

وقد كان في وسعي اذ ذاك المجيء الى الرابية غير مبال بان يكون اعضاء «المجتمع الفاسد» في بيتهم. فقد الفتهم كل الالفة، وكانوا هم

يعتبرونني من جماعتهم. وكان توركيفيتش يقول لي:

– انت صبي طيب، وستصبح انت ايضا، ذات يوم، جنرالاً.

وكان ثمة فتيان مشبوهون يصنعون لي اقواسا ونشابات من خشب الدردار. وكان صف الضابط العملاق ذو الانف الاحمر يقلبني في الهواء تقليب الريشة، معطيا اياي دروسا في الجمباز. وكان «الاستاذ» وحده يظل مستغرقا في تأملات عميقة، وكان لافروفسكي، اذا هو لم يكن قد شرب خمرا، يتحاشى عموما التعاطي مع البشر ويحتجب في الزوايا.

وكان هؤلاء الناس جميعا يقطنون في معزل عن تيبورتسي الذي كان يحتل مع اسرته السرداب آنف الذكر. وكان اعضاء «المجتمع الفاسد» الآخرون يقطنون سردابا آخر من النوع نفسه، اكبر قليلا، تفصله عن الاول ممرات ضيقة، وكان ثمة قسط من النور اقل، ومزيد من الرطوبة ومن الظلمات. وعلى طول الجدران وضعت مصاطب خشبية وقطع من جذوع الاشجار تستخدم كمقاعد. وعلى هذه المصاطب فرشت خرق من

الاطمار لتكون فراشاً. وفي مكان مضاء، في الاوسط، تقوم طاولة نجارة كان الباب تيبورتسي او غيره من هؤلاء الاشخاص المشبوهين، ينجرون عليها بعض الاشياء. كما كان يوجد في «المجتمع الفاسد» اسكافي وسلاّل. ولكن الحرفيين الآخرين، باستثناء تيبورتسي، كانوا جميعاً اما هواة او ضعفاء، او اناسا كانوا، على ما لاحظت، من شدة ارتجاف الايدي بحيث لا يستطيعون القيام بعمل حسن. وكانت ارض هذا السرداب مغمورة بالنشارة والقراضة، تبدو عليها القذارة والفوضى في كل مكان، برغم ان تيبورتسي كان من حين لآخر يرغي ويزبد من غضب لذلك ويرغم احد الساكنين على تكنيس هذا المسكن المظلم وتنظيفه بعض الشيء. وما كنت كثير التردد الى هذا المكان، اذ كنت لا استطيع ائتلاف هذا الجو المنغلق، يضاف الى هذا ان لافروفسكي الكامد كان يستقر هناك في ساعات صحوه. فكان يلبث في العادة جالسا على احدى المصاطب، حاجبا وجهه بين راحتيه، مسدلا شعره الطويل المشعث، او يروح يتمشى في السرداب بخطوات سريعة. ومن كل كيانه كان ينبعث انطباع مرهق محزن

الى درجة تعجز اعصابي عن احتمالها. ولكن البؤساء الآخرين الذي كانوا يشاطرونه هذا المأوى كانوا قد اعتادوا شذوذه منذ وقت بعيد. وقد كان الجنرال توركيفيتش يكلفه بتبييض العرائض والوشايات التي كان يكتبها للاهلين، او الاهجيات التي سيلصقها على اعمدة الفوانيس. فكان لافروفسكي يجلس مطواعا على طاولة صغيرة في غرفة تيبورتسي، فيظل ساعات بكاملها يكتب بخط رائع سطورا سويّة. واتفق لي ان رأيته مرتين ينزل الى السرداب والسكر يتعته. فكان رأس المسكين يتأرجح وهو متدلٍّ من جهة الى اخرى، ورجلاه الجامدتان تتجرجران فتصدمان الدرجات الحجرية، وعلى وجهه تعابير من الألم، والدموع جارية على خديه، وكنا، انا وماروسيا، نراقب هذا المشهد، متلاصقين شديد التلاصق، فيما كان فاليك، وهو يجري بين الكبار بكل يسر، يسند ذراع لافروفسكي تارة، وساقه او رأسه تارة اخرى.

وكل ما كان في الشارع قد جلب التسلية الى نفسي واثار اهتمامي بهؤلاء الناس، كأنه

العرض العجيب، كان يبدو لي هناك، وراء الكواليس، في ضوئه الحقيقي غير المموّه، ويشد على قلبي الطفل بثقل رهيب.

كان تيبورتسي يتمتع في هذه الاماكن بسلطة لا جدال فيها. فهو الذي كان قد اكتشف هذا السرداب، فكان الآمر فيه، والجميع ينفذون اوامره. ولعل هذا هو السبب في اني لا اذكر حالة عرض عليّ فيها احد هؤلاء الناس، الذين فقدوا بلا شك مظهر البشر، عرضا قبيحا. والآن، وقد حنكتني الحياة بتجربتها اليومية، بت اعرف بالطبع ان هؤلاء الناس كان يسود بينهم الفسق الحقير، والقبائح الدنيئة، والتفسخ. ولكني حين اتذكر هؤلاء الناس وهذه المشاهد، في غبش من ضباب الماضي، لا ارى في ذلك غير ميسم المأساة الممزقة للقلب، والألم العميق والبؤس.

ألا إن الطفولة والشباب لينبوعان كبيران للمثالية!

كان الخريف يفعل فعله، والسماء تحتجب وراء السحب باطراد متزايد، والضواحي تتغطى بظلمات مكفهرة، وسيول الامطار تتدفق على

الارض بصخب وينتقل هديرها الرتيب الكئيب الى السرداب.

وقد كان الفرار من البيت في مثل هذا الطقس يكلفني الكثير من العناء؛ على اني ما كنت اجهد الا للخروج خفية؛ فكنت حين اعود الى البيت مبللاً من رأسي الى اخمص قدمي، ابسط ملابسي بنفسي امام المدفأة واستلقي على السرير بهدوء، محتفظا بصمت فلسفي تحت وابل من التوبيخات التي كانت تنطلق من شفاه المربيات والخادمات.

وكنت الاحظ، كلما وصلت الى اصدقائي، ان ماروسيا كانت تزداد تلاشيا باطراد. كانت لا تخرج البتة تقريبا الى الهواء الطلق، والحجر الاغبر، غول السرداب الصامت الأسود، يواصل فعلته الفظيعة من غير توقف، ممتصا الحياة من ذلك الجسد الصغير النحيل. وكانت الصغيرة تقضي اذ ذاك معظم وقتها على الفراش؛ وكنا، فاليك وانا، نجهد لتسليتها واثارة رنين ضحكتها الواهية.

فمنذ ان ألفت «المجتمع الفاسد» نهائيا، كانت ابتسامة ماروسيا الحزينة قد اصبحت

عزيزة علي كابتسامة اختي او تكاد. بيد ان هذا الوسط لم يكن فيه من ينكر عليّ فساد خلقي ابدا، ولا كانت فيه مربية سليطة اللسان، وكان ثمة حاجة اليّ. فلقد كنت اشعر ان الانتعاش كان يصبغ خدي الصغيرة بحمرة الورد كلما جئت. وكان فاليك يعانقني معانقة الأخ لأخيه، وتيبورتسي نفسه كان يرمقنا نحن الثلاثة من حين لآخر بنظرة غريبة يخيل للمرء ان فيها دمعة تترقرق.

صحا الجو بعض الوقت. وهربت السحب الاخيرة من السماء، وعلى الارض التي اخذت بالجفاف تلألأت الايام الاخيرة الشامسة قبل حلول الشتاء. فرحنا نخرج ماروسيا كل يوم الى سطح الارض، فيبدو عليها هناك الانتعاش. فتروح تنظر الى ما حولها، وقد اتسعت عيناها، واصطبغ خداها. فكان يبدو كأن الهواء الذي يلفها بنفحاته الطرية يعيد اليها شذرات الحياة التي سرقتها منها حجارة السرداب الغبراء. ولكن هذا لم يدم غير قليل...

وفي الوقت نفسه كانت تتكدس السحب فوق رأسي ايضا.

ففيما انا، ذات مرة، اسير في ممرات الحديقة صباحا، على عادتي، لمحت ابي في واحد منها والى جانبه عجوز القصر يانوش. كان الشيخ يتكلم، مفرطا في انحناءات المجاملة والمداهنة، وابي يصغي اليه بوجه متجهم وقد ارتسمت على جبينه تجعيدة عميقة من غضب فارغ الصبر. واخيرا بسط ذراعه كانما ليبعد يانوش من طريقه، وقال:

– اذهب، ما انت الا عجوز نمّام!

فراح الشيخ يرفرف بجفنيه، وظل يركض، وقبعته ما تزال في يده، سابقا ابي وسادّا عليه الطريق. وتطاير شرر الغضب من عيني ابي. وراح يانوش يتكلم بصوت خافت، فما كنت اسمع ما يقول، الا ان بعض النتف من عبارات ابي كانت تصل بوضوح الى مسمعي، لاسعة كضربات السوط.

– لا اصدق كلمة... ما مبتغاك من هؤلاء الناس؟ اين الادلة؟.. انا لا اقبل الوشايات الشفهية، واما التحريرية فيجب ان تقيم الدليل عليها. اسكت! هذا شغلي... لا اريد حتى الاستماع اليك.

واخيرا ابعد يانوش بحركة صارمة لم يجرأ معها هذا على الاستمرار في ازعاجه؛ وتوارى ابي في ممر جانبي، وركضت انا الى الباب الصغير للسياج.

كنت شديد الكراهية لبوم القصر العجوز، واذ ذاك بات قلبي يرتعد توجسا. فقد ادركت ان المحاورة التي وقعت عليها تتعلق باصدقائي وربما تتعلق بي انا ايضا.

وحكيت الأمر لتيبورتسي فكشر تكشيرة رهيبة:

— افٍ، ياصغير، اي خبر مزعج!.. يا للضبع العجوز!

فقلت تعزية له:

— لقد طرده ابي.

— ابوك، يا صغيري خير القضاة ابتداء من الملك سليمان... ولكن، أ تعلم ما curriculum vitae؟ طبعا، لا تعلم. ايه، أتعلم ما التذكرة؟ الا فاعلم ان curriculum vitae هي التذكرة المتعلقة بشخص لا وظيفة له في محكمة القضاء... فاذا شم هذا البوم شيئا وحمل

لأبيك تذكرتي، آه، اقسم بالعذراء اني لا اود الوقوع بين قوائم القاضي!

—وهل هو... وحش؟ — سألت متذكراً اقوال فاليك.

— كلا، كلا، يا صغيري! وقاك الله من ان تفكر هكذا بابيك. ان لابيك قلبا، انه يعرف الاشياء معرفة حسنة... وقد يكون عارفاً بكل ما امكن ان يقول له يانوش، الا انه يلتزم الصمت، فهو لا يرى جدوى من مطاردة وحش ادرد في جحره الأخير... ولكن كيف السبيل لشرح هذا لك، يا صغيري؟ ان اباك يخدم سيداً اسمه القانون. وليس له عينان وقلب الا حين يكون القانون غافياً على الرف. اما حين ينزل هذا السيد من على الرف ليقول لابيك: «هيا ايها القاضي، أليس ثمة حيثيات للامساك بتيبورتسي دراب او الاسم الذي يتسمى به؟» ومنذ تلك اللحظة يقفل القاضي على قلبه وتنبت له مخالب من القسوة بحيث ينقلب العالم رأسا على عقب قبل ان يتوصل البان تيبورتسي الى الافلات من قبضته... أتفهم، ايها الصغير؟ ان هذا ليزيدني، كالجميع، احتراماً لابيك، لأنه

الخادم الأمين لسيده، وما اقل هذا النوع من الناس. ولو ان خدم القانون كانوا جميعا على هذه الشاكلة، لكان في وسعه النوم باطمئنان على الرف فلا يستيقظ ابداً... ومصيبتي كلها ناجمة من سوء تفاهم قائم منذ وقت طويل بيني وبين القانون.... يعني، أتسمعني، شقاق طارئ... آه، ولكن اي شقاق، يا صغيري!

قال تيبورتسي هذا، وهب واقفاً فحمل ماروسيا بين يديه ومضى الى زاوية في الداخل فراح يغمرها بالقبل مكباً برأسه الجسيم على صدر الطفلة النحيل. ولبثت وقتاً طويلاً جامداً على الوضع نفسه الذي انا فيه، تحت تأثير الكلام الغريب الذي نطق به ذلك الشخص الغريب. ورغم غرابة تعابيره وتعميتها، كنت قد ادركت فحوى ما قاله تيبورتسي عن أبي، فعظم هذا في ذهني، وبات منذ ذلك الحين مكللاً بغار قدرة مهولة الا انها مستلطفة، بل وبشيء من العظمة. على انه قد اشتد في الوقت نفسه شعور آخر مرير...

فكنت اقول في نفسي: «هكذا هو، ومع ذلك فهو لا يحبني».

٩. الدمية

مرت ايام الصحو، وساءت حال ماروسيا من جديد. ورغم كل ما كنا نبذل من جهود لتسليتها، فقد كانت عيناها الكبيرتان القاتمتان تحتفظان بنظرتهما الجامدة الفاترة، ولم نعد نسمع ضحكتها منذ وقت بعيد. وشرعت اجلب الى السرداب ما لديّ في البيت من الالعوبات، الا انها ما استطاعت غير القليل من التسلية للصغيرة. فقررت اذ ذاك التوجه الى اختي صونيا.

كانت لدى صونيا دمية كبيرة مزوقة الوجه، لها شعر غزير من خيوط الكتان، هدية من امنا المرحومة. وكنت اعلق على هذه الدمية امالاً كباراً، ولذلك دعوت اختي الى ممر منعزل في الحديقة، فرجوتها اعارتي اياها موقتا... وقد بلغ من إلحاحي عليها بالرجاء ومن شدة تصويري لها الصغيرة المريضة الفقيرة، التي لم يسبق لها قط ان رأت دمى لها، ان راحت صونيا اول الامر تضم دميتها بشدة الى صدرها، ثم سلمتني اياها واعدة بان تلعب

خلال يومين او ثلاثة بلعب اخرى دون ان تقول عن الدمية شيئا.

كان الأثر الذي احدثته على مريضتنا هذه الآنسة الرشيقة الجميلة الخدين فوق كل ما كنت اتوقع. فان ماروسيا التي كانت ذابلة كالزهرة في الخريف بدت فجأة وقد دبت اليها الحياة. راحت تضمني بين ذراعيها ضماً شديداً، وتضحك ضحكة رنانة وهي تحادث صديقتها الجديدة... وكان ان حققت الدمية الصغيرة معجزة او كادت: فان ماروسيا، التي لم تكن قد غادرت فراشها منذ وقت طويل، اخذت تمشي لتقوم بالنزهة لابنتها الشقراء. بل لقد كانت تركض من حين لآخر مطقطقة كعادتها بقدميها الواهنتين على الارض.

ومقابل ذلك جلبت لي هذه الدمية الكثير جداً من لحظات القلق. ففي اول الأمر، فيما كنت حاملا اياها مخبأة تحت ثيابي، وانا ذاهب الى الرابية، التقيت في طريقي بيانوش العجوز الذي ظل وقتاً طويلاً يلاحقني بنظراته وهو يهز رأسه. وبعد ذلك بيومين، لاحظت المربية العجوز اختفاء الدمية فراحت تبحث عنها في

جميع الزوايا. وكانت صونيا تجهد لتطمينها مؤكدة في سذاجة انها في غير حاجة الى الدمية، وان هذه ذهبت تتنزه وستعود عما قريب، الأمر الذي لم يكن من شأنه الا اثارة دهشة الخادمات وبعث الشبهة في ان الدمية قد ضاعت ليس الا. وما كان أبي يعرف شيئا بعد، الا ان يانوش عاد لرؤيته وكان نصيبه من جديد الطرد بمزيد من الغضب. ولكن أبي اوقفني في اليوم نفسه، اذ كنت قد بلغت باب سياج الحديقة الصغير، فأمرني بالبقاء في البيت. وحدث الأمر نفسه في اليوم التالي. وبعد اربعة ايام فقط، استيقظت باكرا، فقفزت عن السياج وأبي ما يزال نائماً.

كانت الأمور على الرابية قد ساءت من جديد: فقد عادت ماروسيا فلازمت الفراش، وساءت حالها، واصطبغ وجهها بحمرة غير عادية من الحمى؛ وكانت خصلات شعرها الاشقر تنسرح مشعثة على الوسادة. كانت غائبة عن الوعي لا تعرف احداً. والى جانبها كانت ترقد الدمية المشؤومة بوجنتيها الورديتين، وتعبير عينيها اللامعتين الأبله.

اعربت لفاليك عن مخاوفي، فقررنا ان من اللازم اعادة الدمية حالاً، لا سيما وماروسيا لن تلاحظ ذلك. ولكننا كنا على خطأ! فما ان سحبت الدمية من بين يدي الطفلة الغافية حتى فتحت عينيها ونظرت الى امامها نظرة مضطربة يبدو منها انها لا تراني ولا تدرك ما يجري لها، وراحت تجهش بالبكاء فجاة بصوت خافت، ولكن على نحو يقطعُ نياط القلب، بينما شع من وجهها، عبر الهذيان، تعبير عن الألم بلغ من العمق حداً جعلني اضع الدمية مكانها على الفور. فابتسمت الصغيرة، وهي تضمها الى قلبها، وهدأت. فادركت اني قد اردت حرمان صديقتي الصغيرة الفرحة الاولى والأخيرة في حياتها القصيرة.

القى فاليك عليّ نظرة خجلى. وسأل بلهجة حزينة:

— ما العمل الآن؟

وكذلك كان تيبورتسي، الجالس على المصطبة، مطأطئا رأسه المثقل بالأسى، ينظر اليّ نظرة تساؤل ايضا. فقلت متظاهراً باكثر ما يمكن من اللامبالاة:

— لا بأس! المربية نسيت حتماً.

ولكن العجوز لم تنس. فحين عدت الى البيت، في ذلك اليوم، التقيت بيانوش من جديد على باب الحديقة، ورأيت صونيا مغرورقة العينين بالدموع، وألقت عليّ المربية نظرة غاضبة شديدة الوطأة، مهمهمة بشيء ما في حنق بفمها الأدرد.

سألني أبي اين كنت، وبعد ان سمع بانتباه جوابي المألوف، اكتفى بان امرني مجددا بان لا اغيب عن البيت لأي سبب، بدون اذنه. وكان الأمر قاطعاً باتاً. فما كنت اجسر على مخالفته، ولكني ما اعتزمت ايضا التماس الاذن من أبي.

ومضت اربعة ايام مقلقة. كنت اتمشى في الحديقة محزوناً ملقياً بنظرات حنين صوب الرابية، بانتظار العاصفة التي ستنقضّ على رأسي. ما كنت اعرف ماذا سيحدث لي، ولكني كنت مثقل القلب. ما كان احد في حياتي قد عاقبني بعد. ولم يكن الامر مقتصراً على ان ابي ما كان يرفع عليّ حتى الاصبع، بل اني لم اسمع قط كلمة قاسية من فمه. فكنت اذ ذاك فريسة لتوجس مرهق.

واخيراً استدعاني ابي الى مكتبه. فدخلت وتوقفت خجلاً على عتبة الباب. كانت النافذة

تشرق عليها شمس خريفية كئيبة. ظل أبي بعض الوقت جامداً في مقعده امام صورة أمي دون ان يلتفت الي. وكنت اسمع خفقات قلبي القلقة.

والتفت اخيرا. ورفعت عيني اليه واخفضتها على الفور الى الارض. فقد بدا لي وجهه رهيباً. ومضت قرابة نصف دقيقة شعرت خلالها بنظرته الثقيلة الثابتة منصبة عليّ، ساحقة.

— اخذت دمية اختك؟

انقضت عليّ هذه الكلمات فجاة، بوضوح وحدة جعلاني ارتعد. وبصوت خافت اجبت:

— نعم.

— الا تعلم انها هدية من أمك ينبغي لك اعزازها معزة الآثار المقدسة؟.. هل سرقتها؟

فقلت وقد رفعت رأسي:

— كلا.

— كيف كلا؟—صاح أبي فجاة دافعاً مقعده— سرقتها وأخذتها من هنا!.. لمن اعطيتها؟.. تكلم!

واقترب مني بحدة وحط على كتفي يداً ثقيلة. فرفعت رأسي بمشقة ونظرت الى أعلى. كان وجه أبي شاحباً. وغضون الألم التي كانت قد انحفرت بين حاجبيه منذ ان ماتت امي لم تكن

قد انمحت، ولكن عينيه كانتا تشتعلان غضبا. فتكمشت كل التكمش وكان يخيل اليّ اني ارى في عيني أبي المصوبتين نحوي شرراً يقدح من جنون او... حقد.

— وماذا تنتظر؟.. تكلم!

وشدت يده قبضتها على كتفي. فاجبت بصوت خافت:

— ك.. كلا، لن اقول.

فارعد أبي بصوت منذر مهدد:

— بل ستقول!

— لن اقول — تمتمت بصوت اشد خفوتا.

— ستقوله، ستقول!

كرر هاتين الكلمتين بصوت مخنوق كأنما ينطلق من حلقه بجهد موجع. وشعرت بيده ترتجف، بل لقد خيل الي اني اسمع غليان سورة الغضب في صدره. فازددت احناء لرأسي، وراحت الدموع تنهمر فوق الارض قطرة أثر قطرة، الا اني ظللت اكرر بصوت لا يكاد يسمع:

— كلا، لن اقول... لن اقول لك ابدا، ابدا... ومهما كلف الأمر!

كنت في تلك اللحظة ابن أبي. فما كان ليستخلص مني غير هذا الجواب حتى ولو بتّ عرضة لاشد ضروب التعذيب هولا. فلقد كان يثور في صدري، ضد تهديداته، شعور كنت بالكاد اعيه، هو شعور الولد المهمل، وحب متأجج لاولئك الذين اشاعوا بعطفهم الدفء في نفسي، هناك، في المعبد العتيق.

استعاد أبي انفاسه بمشقة. وازددت انا تكمشا وتقلصا. كان خداي يحترقان بدموع مريرة. وكنت انتظر.

يصعب تصور ما كنت اعانيه طول ذلك الوقت. كنت اعرف انه على درجة رهيبة من النزق، وان الغيظ كان اذ ذاك يغلي في صدره، واني ربما ساتخبط بعد ثانية تخبط العاجز بين يديه القويتين المهتاجتين. ما الذي سيفعل بي؟ يطرحني على الارض... يدق عظامي؟ على انه يبدو لي الآن ان ليس هذا ما كنت اخشاه... فحتى في تلك اللحظة الرهيبة كنت احب هذا الرجل، ولكني كنت اشعر غريزيا انه سيعمد بعنف جنوني الى تحطيم حبي، واني فيما بعد، ما دمت اعيش في كنفه، سيظل يشتعل في قلبي نحوه الى

الأبد هذا الحقد اللاهب، الذي كان يبرق في عينيه القاتمتين نحوي انا.

ومنذ ذلك الحين لم اعد اخافه البتة. ولقد شعرت برغبة لا تقاوم تحفزني لأن اتحداه تحدياً وقحاً سافراً... كنت انتظر واتمنى – على ما كان يبدو لي – الكارثة الختامية. فاذا كان الامر كذلك... فليكن... فذلك افضل، اجل، افضل... افضل...

ومن جديد زفر أبي زفرة ثقيلة. واما انا فما عدت انظر اليه، انما كنت اسمع فقط هذه الزفرة الطويلة، المرهقة، المتقطعة... فهل تراه توصل الى كبح جماح الغيظ الذي كان يتملكه، ام ترى لم يجد هذا الشعور مخرجا له من جراء الحادث غير المتوقع الذي عقب ذلك؟ لست ادرى هذا حتى الآن. انما اعرف فقط ان صوت تيبورتسي الحاد سمع فجأة من النافذة في تلك اللحظة الحرجة:

– هي – هي! يا صديقي المسكين الصغير...

«جاء تيبورتسي»، تلك هي الفكرة التي لمعت في ذهني كالبرق، ولكن هذا المجيء لم يحدث لديّ اي تأثير. فقد تحولت بكليتي الى ترقب

وانتظار، وحتى حين كنت اشعر بيد أبي ترتجف على كتفي، ما كنت اتصور ان ظهور تيبورتسي او اية ملابسة خارجية اخرى يمكن ان تفصل بيني وبين أبي، وتبعد ما كنت اعتبره امراً لا مفر منه وما كنت انتظره في جيشان من الغضب المتحمس الجوابي.

كان تيبورتسي قد فتح الباب بخفة في هذه الاثناء، وتوقف عند العتبة، وحملق فينا نحن الاثنين لحظة بعينيه الحادتين النفاذتين. واني لأذكر هذا المشهد حتى الآن بادق تفاصيله. ففي عيني خطيب الشوارع الخضراوين بلون البحر، وعلى وجهه العريض الغليظ، بدا للحظة تعبير من سخرية مستهترة سيئة النية، الا ان هذا لم يكن الا للحظة فقط. ثم هز رأسه وكان في صوته رنة من الأسى اكثر مما فيها من سخريته المعتادة.

— هي ـ هي، هي!.. ارى صديقي الصغير في وضع جد حرج...

فاستقبله أبي بنظرة قاتمة متعجبة تحملها تيبورتسي بهدوء. كان اذ ذاك رصينا، ولم يكن وجهه يتغضن ويتصعر، وكانت عيناه تعبران عن حزن عميق. قال بصوت ناعم:

— ايها البان القاضي! انك رجل عادل... دع هذا الطفل ينصرف. هذا الصغير كان في «المجتمع الفاسد»، ولكني اقسم بالله الذي يرانا، على انه لم يرتكب اية سيئة، واذا كان قلبه مع ولديّ المسكينين، فاني لأقسم بالعذراء على ان تأمر بسوقي الى المشنقة، اما ان يتألم هذا الصغير من جراء ذلك، فامر لا قبل لي باحتماله. هاك دميتك، يا بنيّ!..

وحل صرة، فاخرج منها الدمية.

وافلتت يد أبي قبضتها عن كتفي. وارتسمت على وجهه امائر الدهشة. وسأل اخيراً:

— ما معنى هذا؟

— دع هذا الصبي ينصرف، ـ كرر تيبورتسي وداعبت راحته العريضة رأسي المنسدل. ـ لن تنال منه شيئا بالتهديدات، على اني ساروي لك بطيبة خاطر كل ما انت راغب في معرفته... فلنمض الى الغرفة الاخرى، ايها البان القاضي.

فاطاع أبي، وهو ينظر الى تيبورتسي نظرة ذاهلة منبهتة لا تريم عنه. وخرجا كلاهما، وبقيت مكاني تحت وطاة المشاعر التي كانت تملأ قلبي. ما كنت في تلك اللحظة ادرك شيئا، ولئن كنت

الآن اتذكر جميع تفاصيل ذلك المشهد، ولئن كنت اتذكر حتى زقزقة العصافير في الخارج وخبط المجاذيف الرتيب الذي كان يصل الى سمعي من النهر، فليس المسؤول عن ذلك غير جهاز الذاكرة الآلية. لم يكن لشيء من كل هذا وجود اذ ذاك في نظري؛ لم يكن ثمة غير صبي صغير تتصادم في قلبه عاطفتان متعاكستان، هما الغضب والحب، تصادماً عنيفاً كان هذا القلب يعتكر منه اعتكار طبقتين من سائلين مختلفي النوعية لدى تصادمهما في كأس واحدة. كان ثمة ذلك الصبي الصغير، الا وهو انا، وقد كنت ارثي لحالي. وكان ثمة صوتان مسموعان في غموض، الا انهما مشتبكان في حوار حار وراء الباب.

كنت ما ازال في المكان ذاته حين فتح باب المكتب ودخل المتحادثان. ومن جديد شعرت بيد تحط على رأسي فارتعدت. انها يد أبي تداعب شعري في لطف.

حملني تيبورتسي بيديه واجلسني على ركبتيه بحضور أبي. وقال:

— تعال الينا، ابوك سيأذن لك بوداع ابنتي لقد... لقد ماتت.

وارتجف صوت تيبورتسي، ورفت عيناه رفة غريبة، ولكنه نهض في الحال، ووضعني على الارض، وانتصب واقفاً وبارح الغرفة سريعاً.

وشخصت الى أبي بعينين مستطلعتين، فالفيت امامي اذ ذاك رجلا آخر، ووجدت في هذا الرجل ذلك الشيء العزيز الذي كنت ابحث عنه فيه عبثاً حتى تلك الآونة. كان يوجه اليّ نظرته التأملية المعهودة، بيد ان هذه النظرة كانت تنم اذ ذاك عن عنصر من الدهشة حتى ليخيل للمرء انه يقرأ فيها سؤالا. كان يبدو ان العاصفة التي هبت علينا قد بددت السحابة الثقيلة التي كانت تكتنف نفس أبي وتغشّي نظرته الطيبة المحبة... واذ ذاك فقط بات أبي يرى فيّ ملامح ابنه المعروفة.

وتناولت يده بحركة واثقة، وقلت:

— انا لم اسرق... صونيا نفسها اعارتني اياها لبعض الوقت...

فاجاب وعلى وجهه سيماء التفكير:

— نعم، اعرف... انا مذنب نحوك، يا ولدي، وستحاول نسيان هذا يوما ما، أليس كذلك؟

فتناولت يده بحرارة وغمرتها بالقبل. كنت اعرف انه لن ينظر اليّ بعد الآن ابداً بعينيه الرهيبتين اللتين كانتا تحدّقان فيّ منذ بضع دقائق، وراح سيل المحبة التي كبحتها وقتا طويلا يتدفق في قلبي.

لم اعد اخافه الآن.

— ستدعنى الآن اذهب الى الرابية؟ — سالته وقد تذكرت فجأة دعوة تيبورتسي.

— نعم... اذهب الى هناك، يا ولدي، اذهب لوداعها... — قال بصوت ملاطف الا انه ما يزال ينطوي على الدهشة — نعم، ولكن مهلا، لحظة، من فضلك، يا ولدي.

وذهب الى غرفة نومه، وعاد بعد دقيقة، فدس في يدي بضع ورقات نقدية.

— اعط هذا... لتيبورتسي... قل له اني ارجوه بتضرع، اتفهم؟.. ارجوه بتضرع ان يقبل هذا المال... منك... أفهمت؟.. وقل له ايضا — تابع أبي بشيء من التردد — انه اذا كان يعرف بينهم من يدعي فيدوروفيتش، فلينذره بان من الافضل له، فيدوروفيتش هذا، ان يبرح

مدينتنا... اذهب الآن، يا ولدي، اذهب بسرعة.

وادركت تيبورتسي الذي كان قد تسلق الرابية، فاديت المهمة التي كلفني بها أبي اداء اخرق، وانفاسي تكاد تتقطع.

— يرجوك بتضرع... أبي... — ودسست له المال في يده.

ما كنت انظر اليه وجها لوجه. وقد تناول المال واصغى بوجه متجهم للرسالة المتعلقة بفيدوروفيتش.

كانت ماروسيا ترقد على مصطبة في زاوية مظلمة من السرداب. ان كلمة «الموت» لا تعني بعد امراً جللاً في مسمع طفل. واذ ذاك فقط، امام منظر ذلك الجسد الفاقد الحياة، خنقني سيل لاهب من الدمع. كانت صديقتي الصغيرة ترقد وقورة وكئيبة وقد برزت قسمات وجهها اللطيف بروزا موجعا. كانت عيناها المغمضتان غائرتين بعض الشيء وقد اشتدت زرقة حلقتيها. وكان فمها منفتحا قليلا وعليه تعبير من أسى طفلي. فكأنما كانت ماروسيا تجيب بهذا التغضن في وجهها على دموعنا.

كان «الاستاذ» واقفاً جهة رأسها يهز رأسه في لامبالاة. وصف الضابط، في احدى الزوايا، ينجرّ بالفاس، بمساعدة اشخاص مجهولين آخرين، تابوتا صغيراً من الاخشاب العتيقة المنتزعة من سقف المعبد. وكان لافروفسكي، في صحو ووعي تام، يصفف حول ماروسيا الازهار الخريفية التي اقتطفها بيده. وفي احدى الزوايا كان ينام فاليك، والرعدة تقصف بكل جسده، وهو يشهق من حين لآخر شهيقا عصبيا.

الختام

بعد هذا الحادث تفرق اعضاء «المجتمع الفاسد» شذر مذر. وما بقي غير «الاستاذ» الذي ظل يتسكع في شوارع البلدة الى ان وافته المنية، وتوركيفيتش الذي كان أبي يكلفه من حين لآخر ببعض الاعمال الكتابية. واما انا فقد سكبت غير قليل من الدم في معاركي مع الصبية اليهود الذين كانوا يعذبون «الاستاذ» مذكرين اياه بوجود ادوات قاطعة وواخزة.

ومضى صف الضابط والاشخاص المشبوهون

الى حيث لا يدري احد بحثاً عن السعادة. اما تيبورتسي وفاليك فقد اختفيا فجأة، دون ان يستطيع احد القول الى اين ذهبا، كما لم يكن احد يدري من اين كانا قد وصلا الى مدينتنا.

واناخ الزمن بكلكله الثقيل على المعبد العتيق. فقد انهار سقفه اول الامر فاخترق عقد السرداب. وبعد ذلك حدثت انهيارات في جوانبه، فما زاد ذلك منظره الا تجهما وقتاما. وباتت ولولات البوم فيه اشد حدة منها في اي وقت مضى. وعلى القبور، في ليالي الخريف الفاحمة، كانت نيران الجن تشعل لهبها الازرق المشؤوم.

قبر واحد فقط، محاط بسياج، كانت اعشابه الطرية تخضوضب في كل ربيع وتزدان بالزهور.

كنا احيانا، صونيا وانا، نزور هذا الضريح برفقة أبي. ولقد كنا نحب الجلوس هناك في ظل شجرة بتولا تفضي بهمسها المغمض، والبلدة امام انظارنا تتلامع في الضباب هادئة ناعمة. وهناك كنا انا واختي نقرأ ونتأمل معا، ونتبادل اولى افكار يفاعتنا، ونفضي باولى مشاريعنا المستوحاة من توثب الشباب الحار النقي.

وحين جاء الوقت الذي كان علينا فيه ان نغادر البلدة الهادئة مسقط رأسنا، اعربنا كلانا، ونحن ممتلئان حياة وأملاً، عن امنياتنا، هناك، فوق ذلك القبر الصغير.

١٨٨٥



ضجيج الغابة

(اسطورة بولزية)

كان في قديم الزمان

١

كانت الغابة تضج...

كانت هذه الغابة تضج على الدوام ضجيجا متسّقا متصلا، كأنه رجع صوت بعيد، هادئ مبهم، كأنه اغنية من غير كلمات تُرنّم بصوت خفيض، كأنه ذكرى الماضي الغامضة. وما كان الضجيج ينقطع فيها لأنها كانت غابة صنوبر قديمة لم يمسها بعدُ منشار ولا فاس حطاّب. وكانت الصنوبرات العالية البالغة من العمر مئات السنين، ذات الجذوع العقيقية الجبارة، تنتصب جيشا عبوسا، وقد تشابكت تيجانها الخضراء. وفي الادنى يسود السكون وتعبق رائحة الصمغ. ومن بساط الابر الصنوبرية المفروش على الارض تنبثق شجيرات السرخس الزاهية ناشرة اهداب اوراقها الجامدة تيجانا عجيبة من الريش. وتغمر

الاماكن الرطبة حشائش ذات عيدان خضراء طويلة. وثمة زهور برية بيضاء تحني رؤوسها المثقلة كأنما هي في ضنى هادئ. اما في الاعلى، فكان يستمر ضجيج الغابة، لا ينتهي ولا يتوقف، كأنه التنهدات المبهمة تطلقها الغابة القديمة.

اما الآن، فقد غدت هذه التنهدات تتزايد عمقا وشدة. كنت اسلك على صهوة جوادي درباً في الغابة. وبرغم احتجاب السماء عن ناظري، كنت ادرك، وانا ارى الغابة تتجهم، ان سحابة ثقيلة تتلبد فوقها. كان النهار يوشك ان ينقضي، وعبر جذوع الاشجار تتسرب هنا وهناك خيوط مائلة من اشعة الشمس الغاربة. اما الآجام فكانت تزحف فيها ظلال غسق ضبابي. وقبيل المساء كانت العاصفة تتجمع.

فكان لا بد في ذلك اليوم من صرف النظر عن اي برنامج للصيد. ولم يكن قد بقي لي من الوقت في الاكثر غير ما ابلغ به مبيتا لي قبل العاصفة. وكان جوادي يصطدم بالجذور المجردة بحوافره، وينخر وينصب اذنيه متنبها للصدى الرنان الذي كانت تردده الغابة. ومن تلقاء نفسه حث خطاه نحو بيت حارس الغابة المألوف.

ونبح كلب. ومن خلال الجذوع المتفرقة بدت جدران من اللبن. وتحت افريز الخضرة كان يتمدد حلزون من الدخان الازرق. وفي سفح حصن من الجذوع العقيقية كان يلطو بيت ريفي منحرف مسقوف بالاشنة، كانما هو ضارب جذوره في الارض، بينما كانت اشجار الصنوبر الممشوقة المتعالية تهز رؤوسها عالية جدا من فوقه. ووسط المرج الصغير حزمة من اشجار البلوط الفتية المتراصة.

كان يسكن في هذا المكان رفيقاي المألوفان في رحلات الصيد، حارسا الغابة زاخار ومكسيم. ولكنهما كليهما لم يكونا اذ ذاك في المسكن على ما يبدو، اذ لم يخرج احد على نباح كلب الرعاة الجسيم. وما كان ثمة غير الجد العجوز الاصلع، الابيض الشاربين، جالسا على مصطبة من تراب، منهمكاً في ترقيع حذاء من لحاء الشجر. كان شارباه منسدلين حتى ليكادان يبلغان حزامه، ونظرته المنطفئة توحي للمرء بان الشيخ يحاول عبثا تذكر أمرٍ ما.

– مرحبا، يا عم. أفي البيت احد؟

فقال ملوحا برأسه:

– هي – هي! ليس هنا لا زاخار، ولا مكسيم. وحتى موتريا ذهبت الى الغابة تبحث عن البقرة... الدابة سرحت الى مكان ما، الدببة ربما تكون... قد مزقتها اربآ... وها انه لم يبق في البيت احد!

– لا بأس. ساجلس معك انتظر.

– انتظر، انتظر – اجاب الشيخ هازا برأسه. وفيما كنت اربط جوادي بغصن بلوط، راح يحملق فيّ بعينيه الواهنتين العكرتين. كان الشيخ في ارذل العمر: عيناه لا تبصران، ويداه ترتجفان. وحين جلست الى جانبه سألني:

– ومن انت، ايها الفتى؟

وكان هذا سؤالا اسمعه في كل زيارة من زياراتي.

– هي – هي، اعرف الآن اعرف – قال الشيخ منصرفا من جديد الى عمله. – رأسي الهرم كالمصفاة، لم يعد يحفظ شيئا. الناس الموتى منذ زمن بعيد اتذكرهم، اي نعم، اتذكرهم جيدا! اما الجدد فانساهم دائماً... عشت اكثر من عمري في هذه الدنيا.

– وهل انت ساكن في هذه الغابة منذ زمن بعيد يا عم؟

– هي – هي، بعيد بعيد جدا! حين جاء الفرنسيون الى ارض القيصر، كنت هنا.

– رأيت اذن الكثير في حياتك. ولديك ما تقصه.

ونظر اليّ الشيخ في دهشة.

– وماذا كان فى وسعي ان ارى، يا بني؟ لقد رأيت الغابة... والغابة تضج ليل نهار، تضج شتاء وصيفا... وانا، كهذه الشجرة، مضت حياتى كلها في الغابة، وما كنت الاحظ ذلك... وها انا قد بت الآن على حافة القبر، ولكني افكر احيانا، يا بني، فلا استطيع ان ادرك انا نفسي: أتراني عشت في هذه الدنيا ام لا؟.. هي – هي، هذه هي الحال! لعلي لم اعش على الاطلاق...

ومن وراء ذرى الاشجار الكثيفة، زحف فوق المرج طرف سحابة سوداء؛ وهز عصف الرياح اغصان اشجار الصنوبر المحيطة به، وهب صخب الغابة مشددا ايقاعه – فرفع الشيخ رأسه وأرهف اذنيه. وقال بعد دقيقة:

– العاصفة تقترب. هذا امر اعرفه. اوه،

اوه، كم ستزمجر العاصفة في هذه الليلة، محطمة اشجار الصنوبر ومقتلعة اياها من جذورها!.. — ثم اضاف محفضا صوته: — سيفعل سيد الغابة فعاله...

— ومم تعرف، يا عم؟

— هي — هي، هذا امر اعرفه! اعرف جيدا ما تقول الشجرة... الشجرة ايضا تخاف، يا بني... انها الرجراجة هذه الشجرة اللعينة، التي تظل تهمهم على الدوام دون توقف. لا تكون ثمة ريح، ومع ذلك فهي ترتجف. واما الصنوبر في الغابة فيطنن بابره مرحا وقت الصحو، ولكن ما ان تهب الريح قليلا حتى يروح يدندن ويئن. على ان هذا ليس بذي بال... هاك، اسمع الآن. اني على كوني حسير البصر، احسن السمع باذني: لقد اخذ البلوط يضج، بات البلوط يهتز في المرج... انها العاصفة وشيكة الهبوب.

وبالفعل كانت حزمة من اشجار البلوط القصيرة الجذوع، النابتة وسط المرج، في كنف جدار غابة الصنوبر العالي، تتخبط باغصانها القوية، مطلقة صخبا اصم ينماز بسهولة عن اهتزاز اشجار الصنوبر الرنان.

فقال الشيخ بابتسامة عليها طابع من خبث الاطفال:

— هي — هي! أتسمع، يا بني؟ اني لأعرف هذا جيدا: حين تهتز البلوطة هكذا، فمعنى ذلك ان **سيد الغابة** سيجيء ليلا فيقصفها... ولكن لا، لن يفعل شيئا من ذلك! البلوطة متينة البنيان، وليس في مقدور سيد الغابة نفسه ان يصرعها... هكذا!

— عن اي سيد تتكلم، يا عم؟ انت نفسك تقول: العاصفة هي التي تحطم الاشجار.

فهز الشيخ رأسه بخبث.

— هي — هي، اني اعرف هذا!.. ثمة في ايامنا هذه، على ما يقال، اناس لم يعودوا يعتقدون بشيء. هكذا! ولكني انا نفسي رأيته، مثلما اراك انت الآن، بل احسن مما اراك، فقد شاخت عيناي الآن، بينما كانتا في فتوتهما اذ ذاك. اوه، اوه، وما احسن ما كانت عينايّ في ايام صباي!...

— فقل لي، يا عم، كيف رأيته؟

— هاك اذن، كأني ارى ذلك الآن: تبدأ الصنوبرات، اولا، تئن في الغابة... حيناً ترن،

وحيناً تروح تتشكى: او – اوه – او – اوه... ثم تصمت، ثم تستانف من جديد، وبصوت متزايد الشكوى. هي – هي، ذلك لأن السيد سيحطمها بالجملة طول الليل. واذ ذاك تروح البلوطة تتكلم. وقبيل المساء يتزايد هذا شدة، وفي الليل يحل بضوضائه: يركض في الغابة من جميع الجهات، ضاحكاً، باكياً، منعطفاً، راقصاً، وينقض على اشجار البلوط دون توقف، يريد اجتثاثها جميعا من جذورها... وذات مرة، في الخريف، نظرت من النافذة، فلم يرقه هذا، فانقض على النافذة، وقذفها باورومة شجرة من اشجار الصنوبر، فكاد يمسخ وجهي، مسخه الشيطان! اما انا، وما كنت بالبليد، فقد قفزت جانباً. هى – هى، ها انت ترى، يا بني، كم كان شريرا!

– وما هيئته؟

– انـه، من حيث الهيئة، قريب الشبه بصفصافة عجوز وسط مستنقع. شديد الشبه بها!.. اما شعره، فاشبه بنبتة الدبق اليابسة التي تلصق بالاشجار، وكذلك لحيته، واما خرطومه فكالغصن الكبير، واما وجهه فمجدور،

كانه مغمور بالاشنة. فما اشد قبحه! وقى الله كل مسيحي من ان يكون على صورته... رباه! اتفق لي ان رأيته عن كثب، مرة اخرى، في المستنقع. واذا شئت، فتعال في الشتاء تره بنفسك. لن يكون عليك الا ان تصعد الى هناك، الى تلك الرابية المغطاة بالاحراج، وترقى بعد ذلك الى قمة اعلى شجرة. فهناك تمكن رؤيته في بعض الايام: يمشي فوق الغابة عموداً ابيض دائرا على نفسه، ثم ينحدر من الرابية الى الوادي واذ ذاك يروح يركض، ويركض ثم يتلاشى في الغابة. هي – هي!.. وانه ليترك على طريقه اثرا من ثلج ابيض... فاذا كنت لا تصدق هذا الشيخ العجوز فما عليك الا ان ترى ذلك بنفسك.

وظل الشيخ يثرثر، وكأنما صوت الغابة المنتعش الزاخر بالقلق، والعاصفة المعلقة في الجو، قد اعادا الحياة الى دمه العجوز. فكان يلوح برأسـه، ويبتسم غامزاً بعينيـه الحائلتي اللون.

فجأة مر ظل على جبينه العريض المتغضن. فقال بلهجة مبهمة، بعد ان لكزني بكوعه:

– وهل تعلم، يا بني، ما ساقول لك؟ انه هو، سيد الغابة، مخلوق مقرف، ما في ذلك شك. مقرف للمسيحي ان يرى سحنة في مثل هذه الدمامة... على انه لا بد من قول الحقيقة: انه لا يؤذي... اما فيما يتعلق بالمزاح مع الانسان، فنعم، واما ان يؤذيه، فقطعاً لا.

– ولكنك انت نفسك، يا عم، قلت انه كان يريد ضربك بارومة شجرة؟

– هي–هي، كان يريد ذلك! ذلك لانه غضب اذ رآني انظر اليه من النافذة، هذا كل ما في الامر! اما من لا يدس انفه في اموره، فليس يسيئُ اليه ابدا. هكذا هو جنّي الغابة!.. وانت تعلم ان يد الانسان ترتكب في الغابة اشياء اكثر نكرا... هي–هي، يا الله!

واحنى الشيخ رأسه، وظل لحظة فى صمت. وحين نظر اليّ فيما بعد من خلال الغشاوة على عينيه، بدا كانما التمعت شرارة في ذاكرته الوسنى.

– اليك، يا بني، ساروي لك حكاية قديمة من حكايات غابتنا. جرى ذلك منذ زمن بعيد، في هذا المكان بالضبط الذي نحن فيه... اتذكره

كالحلم، وانه ليعود الى ذكرتي كلما راحت الغابة تضج ضجيجا اشد... أتريد ان احكيها لك، ها؟

– اريد، اريد، يا عم! هات احك.

– اذن، سأحكيها، هي–هي! فهيا اسمع!

٢

كان لي، لو تعلم، اب وام توفيا منذ زمن بعيد، اذ كنت ما ازال طفلا صغيرا... وتركاني لوحدي في هذه الدنيا. تلك كانت قسمتي، هي–هي! ويتساءل الجمع اذ ذاك: «ماذا سنفعل الآن بهذا الصبي الصغير؟» وفي ذلك يفكر البان ايضا... وفي هذه الاثناء يصل من الغابة حارس الغابات رومان، فيقول للجمع: «اعطوني هذا الصغير، آخذه لبيتي واطعمه... سيكون الامر ابهج لي في الغابة، ويتامن له خبزه...» هكذا قال، واما الجمع فقد اجابه: «خذه!». فاخذني. وظللت في الغابة منذ ذلك الحين.

وهنا رباني رومان. واي انسان رهيب كان هذا، يا لطيف!.. طويل، عيناه سوداوان تلمع

فيهما روح في مثل هذا السواد، فقد عاش هذا الرجل لوحده دائما في اعماق الغابة: كان الناس يقولون عنه انه اخ للدب، وابن عم للذئب. كان يعرف كل وحش، فلا يخشى ايا من الوحوش، اما الناس فكان يتجنبهم، بل ولا يلقي اليهم نظرا... هكذا كان، واقسم بالله على ان هذه هي الحقيقة. ولقد كنت احسّ احيانا، وهو ينظر الي، كان دبيبا من النمل في ظهري... والى جانب هذا، كان مع ذلك انسانا طيبا، كان يطعمني، لا مجال للقول في هذا، طعاماً حسنا: فقد كان لديه على الدوام شحم خنزير في عصيدة الحنطة السوداء، واذا ما اصطاد بطة، فقد كنا ناكل البط. حين يكون الامر حقيقيا، فلا مجال للقول. لقد كان يطعمني طعاما حسنا.

هكذا كنا نعيش معا. وحين كان رومان يذهب موغلا في الغابة، كان يغلق عليّ البيت لكي لا يفترسني وحش من الوحوش. وبعد ذلك اعطوه اوكسانا زوجة له.

وكان البان هو الذي اعطاه اياها. قال له، وقد استدعاه الى القرية: «ايوه، يا رومان، يجب تزويجك!». فيقول له رومان اولا:

«ما حاجتي الى الزوجة وماذا افعل بالمرأة في الغابة، ما دام لديّ بدون ذلك صبي صغير؟ كلا، لا اريد ان اتزوج!» ما كان يألف صحبة الفتيات، تلك هي المسألة! اجل، ولكن البان كان خبيثاً هو ايضا... واني لأقول لنفسي، يا بني، حين اتذكر هذا البان، ان امثاله لم يعد لهم وجود، لم يعد ثمة بان مثله، ضاع هذا الصنف... هاك، فلنأخذك انت، مثلا:انك من ارومة نبيلة انت ايضا، على ما يقال... ربما هذا صحيح ولكن ينقصك ما هو حقيقي... انت فتى عادي لا اكثر.

اما ذاك، فقد كان حقيقيا من نبلاء الزمان الاول... هاك، ساقول لك، ان الامر هكذا في الحياة، اذ يخاف مئة رجل رجلا واحدا، وكيف! انظر، يا بني، الباشق وفرخ الدجاجة: كلاهما منفقسان من بيضة، ولكن الباشق يطير فورا الى السماء، هي - هي! وما ان يطلق صيحته في الاجواء حتى تهرع الديكة الكبار هاربة باقصى السرعة، لا افراخ الدجاج وحسب... ذلك لأن الباشق من نبلاء الطير، وما الديك الا فلاح بسيط...

هاك، اني اتذكر ايام كنت ما ازال صبيا صغيرا، ان نفرا من الفلاحين كانوا يحملون من الغابة جذوعا كبيرة، وكانوا قرابة ثلاثين رجلا. فاذا بالبان يصل لوحده، على حصانه، وهو يفتل شاربيه. وفيما كان ينظر الى ما حوله، كان الحصان يتوثب تحته. اوه، اوه! ما ابصر الفلاحون البان حتى راحوا يتراكضون وادارو ا خيولهم جهة الثلج، وخلعوا قلانسهم، وكم كان عليهم ان يجهدوا فيما بعد لاخراج عربات الاخشاب من الثلج، اما البان فقد مر من غير انزعاج، ومع انه كان لوحده، كما ترى، فان الدرب لم يكن يسعه! ما ان يقطّب البان حاجبيه حتى يرتجف الفلاحون، واذا هو ضحك شاعت الغبطة في نفوس الجميع، واذا ما اكفهر جبينه عم الأسى قلوب الجميع. اما مخالفة البان فيما يقول فهذا ما لا يكاد يحدث ابدا.

اما رومان فكان، كما هو معروف قد عاش دائما في غابته، ولم يكن يعرف المجاملة، فان البان لم يكن شديد الغضب عليه. وقد قال له:

– اريد ان تتزوج، اما السبب لذلك فانا اعرفه. خذ اوكسانا.

– وانا لا اريد – اجاب رومان – لست بحاجة اليها، وان تكن اوكسانا! فليتزوجها الشيطان، اما انا فلا... هكذا!

فامر البان بجلب السياط. وطرحوا رومان ارضا، وساله البان:

– أتتزوج، يا رومان؟

– كلا، لن اتزوج.

– إجلدوه قدر ما يحتمل – قال البان.

وجلدوه جلداً ليس بالقليل؛ ولم يعد رومان يطيق، على ما كان له من عافية ورجولة. فقال:

– طيب، كفى، وليكن! لأن تاكلها جميع شياطين الارض خير لي من احتمال كل هذا العذاب في سبيل امرأة. هاتوها في الحال، ولأتزوجها!

كان بين رجال البان سائس كلاب يدعى اوباناس شفيدكي. وكان قد جاء من الحقل على حصانه في الوقت الذي كانت تنتزع فيه من رومان، بضرب السياط، موافقته على الزواج. وما علم بالمصيبة التي حلت برومان

حتى خر ساجدا على قدمي البـان. على قدميه بالضبط، وراح يقبلهما... وقال له:

— ما الفائدة، يا سيدي الرحيم، من ضرب رجل بالسياط. فليزوجوني انا اوكسانا، فما اقول كلمة...

هي – هي، لقد كان هذا راغبا في الزواج منها. هكذا كان هذا الرجل، يا لله!

واحس صاحبي رومان بكامل السعادة والارتياح. وما نهض، بعد ان رتب بنطاله، حتى قال:

— عال، ولكن اما كان بوسعك الوصول قبل قليل، يا صاحبي؟ نعم، والبان هو ايضا – هكذا هي الحال دائما!.. اما كان يحسن صنعا لو انه يتحقق كما ينبغي مما اذا لم يكن ثمة من يسعده الزواج؟ يجعلونك تمسك بصاحبك، وهيـا عليك بـه! أهذه اعمـال مسيحيين؟ تفـّا!..

هي – هي، لقد طالما تحدى البان – هكذا كان رومان! حين كان يغضب، لم يكن البان نفسه يجسر في بعض الاحيان على الدنو منه. ولكن البان كان خبيثا! كان في رأسه امر آخر، كما

سترى! فقد امر بان يطرحوا رومان ارضا من جديد. وقال:

— اريد سعادتك يا حمار، اما انت فتدير أنفك. انت الآن تعيش لوحدك كالدب في وجرك، وليس يطيب للمرء ان يزورك... هيا إجلدوا هذا الغبي الى ان يقول كفى!.. اما انت، يا اوباناس، فاغرب عن وجهي الى الجحيم. انك لم تدع الى الطعام، فلا تجلس على المائدة. على انك ترى ما يقدم لرومان من الطعام؟ فحذار ان تذوقه انت ايضا.

اما رومان فما كان غضبه مزاحا، هي – هي! وقد عذبوه تعذيبا شديدا، اذ ان رجال الزمن الماضي كانوا يحسنون سلخ الجلد بالسياط، اما هو فظل مستلقيا، وما قال: كفى! واحتمل وقتا طويلا، ومع ذلك فقد بصق اخيرا:

— بسبب امرأة، قصف الله عمرها، يعذب مسيحي هكذا، ودون ان تعد الضربات ايضا. كفى! فلتتجفف ايديكم، يا خدم الشيطان! ان الشيطان هو الذي يعلمكم استعمال السياط. على اني لست جرزة على بيدر لأضرب هكذا. وما دام الامر هكذا، فسأتزوج.

فانطلق البان يضحك. وقال:

– هذا حسن! صحيح انك لن تستطيع الجلوس في حفلة الزفاف، ولكنك ستجيد الرقص...

ان سيدنا لذو دعابة، اقسم لك، ولقد كان مرحا، هي – هي! على انه بعد ذلك قد انتهى نهاية سيئة وقى الله منها كل مسيحي. والحق، اني لا اتمنى مثلها لأحد. كما ليس يجوز للمرء ان يتمناها ليهودي. هذا ما اعتقد...

وهكذا زوجوا رومان. وجاء بزوجته الصبية الى مسكنه. كان اول الامر ينصبّ عليها بالشتائم والاهانات ويحمّلها مسؤولية ما لقيه من جلد. فكان يقول لها:

– لستِ اهلا، لستِ اهلا لأن يجلد مسيحي بسببك.

وكان يطردها من البيت منذ ان يعود من الغابة:

– هيا، اذهبي! ما انا بحاجة الى امرأة في بيتي! لا اريد ان اشم رائحتك! لا احب ان تنام في بيتي امرأة. ان لها لرائحة كريهة. هي – هي!

وفيما بعد سويت الامور، وألف هذه الحال. فكانت اوكسانا تكنس البيت، وتكلسه، وتصفّ آنية المطبخ: فاذا كل شيء يلمع من النظافة لمعانا يبهج القلب. ورأى رومان ان لديه زوجة طيبة فأخذ يالفها شيئا فشيئا. ولم يقتصر الامر على ان الرجل اخذ يالفها، بل راح يحبها، ولست في هذا كاذبا، اقسم بالله! هكذا جرت الامور مع رومان. وقد قال مرة اذ بات على ألفة حسنة مع زوجته:

– اي نعم، شكرا للبان، لقد علمني اين كان الخير لي. الحق اني كنت رجلا قليل الفطنة: فكم تلقيت من ضربات بالسياط، وها انا الآن ارى ان ذلك لم يكن بالامر السيىءُ، بل بالعكس تماما. ذلك هو الامر.

لست ادري كم مر من الزمن على هذه الحال. وذات يوم استلقت اوكسانا على المصطبة وراحت تئن. وفي المساء اشتدت عليها الاوجاع، وفي الصباح سمعتُ من يصأى بصوت رقيق يهز النفس. فقلت لنفسي: هي – هي! أكيد ان طفلا قد ولد. وكان الأمر كذلك.

وما بقي الطفل طويلا في هذه الدنيا: فقد جاء في الصباح وفي المساء لم يكن على قيد الحياة. في المساء لم يعد يصاى... وراحت اوكسانا تجهش بالبكاء. ولكن رومان قال لها:

— لم يعد للطفل وجود، وما دام قد مات، فلا حاجة لاستدعاء الخوري. سندفنه تحت شجرة صنوبر.

هذا ما قال رومان، وقد فعل ما قال: حفر حفرة صغيرة ودفنه فيها. هاك، انظر تلك الارومة العتيقة هناك: لقد احرقت الصاعقة الشجرة... تلك كانت شجرة الصنوبر التي دفن رومان الطفل في سفحها. وهل تعلم، يا بني، ما ساقول لك: حتى الآن، ما ان تغيب الشمس، ويبزغ نجم الراعي فوق الغابة، حتى يجيء طائر صغير فيطير هناك ويصيح. اوه، يا للصيحة المؤثرة التي يطلقها ذلك الطائر الصغير، انها لتقطع نياط القلوب! ذلك انها روح غير معمّدة تلتمس سر القربان. ويقول الناس المتعلمون، الذين تعلموا من الكتب، ان في الوسع اعطاءها اياه، فلا تعود ترجع... ولكننا، نحن الذين نعيش هنا في الغابات، لا نعلم من ذلك شيئا. انها تطير، وتطلب، ونحن

نقول فقط: «اسفا، ايتها الروح المسكينة، ليس في وسعنا فعل شيء!» فتروح اذ ذاك تبكي، وتطير، ثم تعود من جديد... ايه، يا بني، فليحزن قلبك على هذه الروح المسكينة!

وحين تعافت اوكسانا، كانت تذهب طول الوقت الى القبر. تجلس هناك وتبكي بكاء شديدا يسمع في الغابة كلها. الى هذا الحد كانت تتفجع على طفلها، اما رومان فما كان يحس شيئا من ذلك، الا نحو اوكسانا. فلدى عودته من الغابة كان يروح يجلس قربها فيقول لها:

— اسكتي، ايتها المرأة الحمقاء! لا شيء يستحق البكاء! طفل صغير مات، ويمكن ان يجيء آخر. بل احسن منه بالتاكيد. اذ ان ذلك لم يكن مني، ربما، ولست ادري من الأمر شيئا على كل حال. الناس يقولون... والآخر سيكون مني.

ما كانت اوكسانا تستطيب قط هذا الكلام منه. فكانت تكف عن البكاء، وتروح تشتمه بالكلام البذيء. على ان رومان لم يكن يغضب عليها. فكان يسألها:

— وما الذي يدعوك لشتمي؟ اني لم اقل اي كلام سيئ، انما قلت فقط اني ما كنت اعلم

عن الامر شيئا. واني لست اعلمه، اذ لم تكوني من قبل زوجة لي، وما كنت تعيشين في الغابة، بل في الدنيا، بين الناس. فأنّى لي والحالة هذه ان اعلم؟ وانت الآن تعيشين في الغابة، وهذا حسن جدا. ولكني حين ذهبت الى القرية لاجيء بالقابلة، قالت لي الام فيدوسيا: «اي نعم، يا رومان، لقد نما طفلك سريعا!». فقلت انا لهذه القابلة: «أنّى لي ان اعرف ان كان قد نما سريعا ام لا؟..». فهيا كفى عن الصياح هكذا، والا فسيثور بي الغضب، فحذار، ان في وسعي ان اضربك.

واذ ذاك كانت اوكسانا تنهال عليه سبا وشتما، ثم تتوقف اخيرا.

وكانت في بعض الاحيان توسعه شتما وتضربه بقبضتها على ظهره، ولكنها كانت تهدأ على الفور حين كان رومان يبدأ بالغضب هو نفسه؛ فقد كانت تخاف. فتروح تلامسه مداعبة، وتتعلق برقبته، وتقبله، وتحدّق في عينيه... فكان صاحبي رومان يهدأ هو ايضا. لأن... أترى يا بني... انت، بلا شك، لا تعلم، اما انا، وقد بلغت من الشيخوخة هذا المبلغ، فقد رأيت في

حيني، برغم اني لم اتزوج قط: ان قبلات المرأة الصبية عذبة جدا، وفي وسعها ان تتملق اشد الازواج غضبا. اوه – اوه... انا اعرف هذه المخلوقات، كيف هي. ولقد كانت اوكسانا بنيّة جميلة جدا، لا مثيل لها في ايامنا هذه. واني لأقول لك، يابني، ان بنات اليوم لم يعدن كبنات الامس.

وانطلق النفير في الغابة ذات مرة: تراتا، تارا – تارا – تا – تا! وراح الصوت يدوي في الغابة مرحا رنانا. كنت اذ ذاك غلاما صغيرا، فما كنت اعلم ما يعني هذا. ارى الطيور تطير من اعشاشها مصفقة باجنحتها مطلقة الصيحات، وارنبا مطويّ الاذنين يجري مسرعا، فاقول اذ ذاك لنفسي: لعله وحش عجيب يصوّت هذا التصويت الحلو. على ان ذلك لم يكن وحشا، بل البان يجري في الغابة على جواده، نافخا في النفير. وعلى اثر البان كان سواسه راكبين الخيول ايضا يقودون كلابا مربوطة ازواجا. وكان اجمل الجميع اوباناس شفيدكي الراكب على صهوة جواده المتبختر خلف البان، عليه معطف قوزاقي ازرق،

وعلى احد كتفيه «باندورا»* مربوطة بحزام. كان البان يحب اوباناس لانه عازف ماهر على الباندورا، ولا مثيل له في الغناء. آه، يا لذلك الفتى الجميل، اوباناس، لقد كان جميلا حتى الجنون! لم يكن البان يضارع اوباناس، فقد كان اصلع الرأس، احمر الانف، وكانت له عينان مرحتان، الا انهما لا تضاهيان عيني اوباناس. وحين كان اوباناس ينظر الي كنت، وانا الفتى الصغير، احس برغبة في الضحك، بيد اني ما كنت بنتا. وكان يقال ان اوباناس متحدر الآباء والاجداد من قوزاق زابوروجيه الضاربين في سيتش، وان ابناء تلك النواحي يتصفون جميعا بالجمال وحسن القوام والرشاقة. وتصور بنفسك، يا بني: ليس من يطير بالرمح على ظهر الجواد كالعصفور كمن يكسر الاشجار بالفأس، على ما اعتقد...

واهرع اذ ذاك خارجا من الكوخ، واتطلع: يصل البان، فيتوقف، وكذلك السواس. ويخرج

* آلة موسيقية اوكرانية كثيرة الاوتار ذات شكل نصف كروي. — **المترجم**.

رومان من البيت ليمسك بركاب البان. ويحط البان قدمه على الارض. وينحني له رومان:

— عافاك الله! — يقول البان لرومان.

فيجيب رومان:

— هي - هي، اني في عافية، فشكرا، وماذا يمكن ان يصيبني؟ وكيف حالك انت؟

ما كان رومان، كما ترى، يعرف كيف ينبغي ان يجيب البان. ولدى سماعه يروح رجال البان جميعا يضحكون، وكذلك البان. ويقول البان:

— طيب، الحمد لله على انك في عافية، ولكن اين زوجتك؟

— واين تريد ان تكون؟ مكان المرأة هو البيت...

فيقول البان:

— طيب، سندخل، وانتم، يا فتيان، افرشوا السجادة في هذه الاثناء على الحشيش واعدوا لنا ما ينبغي من الشراب على صحة الزوجين الشابين، نخب الزيارة الاولى!

وها هما، البان واوباناس، يدخلان ومن ورائهما رومان خالعا قبعته، ثم بوغدان، السائس الاول، خادم البان الأمين. لم يعد المرء يرى الآن

امثالا لهؤلاء الخدم: قساة مع جماعتهم الا انهم كلاب امام البان. ولم يكن لبوغدان من احد في الدنيا، سوى البان. ويقال انه، حين مات أبوه وأمه، التمس من البان العجوز ان يتخذه فلاحا ويزوجه. ولكن البان العجوز لم يسمح له بذلك، وربطه في جملة خدم ابنه، قائلا له: فليكن هذا أبا لك وأما وزوجة. وهكذا قام بوغدان بتربية البان الصغير والعناية به، فعلمه ركوب الخيل واطلاق النار. وكبر البان الصغير، واصبح سيدا بدوره، واستمر بوغدان يتبعه كالكلب. اوه، اني ساقول لك الحق: لقد لعن كثير من الناس بوغدان هذا وانه لمسؤول عن كثير من دموع الخلق... وكل ذلك من جرّاء البان. وفي اعتقادي ان بوغدان كان اهلا لأن يمزق أباه اربا، بكلمة من البان...

وابادر، انا الصبي الصغير، فاتسلل خلفهم الى البيت؛ بدافع الفضول، مفهوم. ورحت اتبع البان حيثما ذهب.

وانظر فارى البان واقفا وسط الغرفة، يضحك وهو يمسد شاربيه. ورومان ايضا هناك، يراوح في مكانه، داعكا قبعته بيديه، واوباناس

واقف جانبا، مستندا على الجدار، مسكينا كهذه البلوطة الصغيرة في قلب العاصفة، مقطب الجبين، بائسا...

كانت انظار الثلاثة جميعا موجهة نحو اوكسانا، وبوغدان العجوز وحده اتخذ له مكانا في زاوية على المصطبة، وقد تدلت ناصيته القوزاقية، منتظرا امرا ما من البان. وتظل اوكسانا منتصبة في الزاوية الاخرى، قرب المدفئة، مسبلة العينين، محمرة الوجه، كأنها زهرة خشخاش منثورة في حقل شعير. أوه، لقد كانت المسكينة تحس جيدا ان كريهة توشك ان تحدث بسببها. وساقول لك ايضا، يا بني: حين يكون ثمة ثلاثة رجال عيونهم مصوبة على امرأة واحدة، فليس هذا ببشير خير: ففي وسع المرء ان يكون على يقين من انهم سيأخذون بتلابيب بعضهم بعضا، ان لم يكن اسوأ من هذا. واني لأعرف هذا، لأني رأيته.

— اي نعم، يا رومان — يقول البان ضاحكا — انها امرأة لطيفة هذه التي خطبتها لك؟

فيجيب رومان:

— وماذا؟ زوجة كجميع الزوجات. لا بأس!

وهنا يشيل اوباناس بكتفيه، ويقول بينه وبين نفسه، وعيناه تنظران الى اوكسانا:

— نعم، انها زوجة! ويا للخسارة في انها كانت من نصيب هذا المغفل!

ويسمع رومان هذا الكلام، فيلتفت الى اوباناس، ويقول له:

— وما السبب، ايها البان اوباناس، في اني، في رأيك، لست سوى مغفل؟ هي — هي، قل!

فيجيب اوباناس:

— الأمر هو انك اذا لم تكن أهلا لحراسة زوجتك فانت مغفل!

هكذا يقول له اوباناس. فيروح البان يخبط الارض بقدميه، فيما بوغدان يهز ذقنه، ورومان يرفع رأسه، بعد ان فكر لحظة، وينظر الى البان. ويرد على اوباناس وهو ما يزال يحدق في البان:

— وما الداعي لحراستها؟ فيما عدا الوحوش لا يرتاد هذا المكان اي شيطان، الا اذا مر سيدنا الرحيم. فممن احرس اذن زوجتي؟ فحذار ان تثيرني، ايها القوزاقي اللعين، والا فاني اشد ناصيتك.

ولقد اوشكا، في اعتقادي، ان يتشابكا بالايدي، لو لم يتدخل البان، فقد خبط الارض بقدمه، فجمدا في مكانهما. وقال:

— رويدكم، يا اولاد الشيطان! لم نأت هنا لنتقاتل. ينبغي ان نشرب على صحة الزوجين الشابين، ثم نذهب قبيل المساء فنتصيد في المستنقع. هيا اتبعوني!

ويدور البان على عقبيه ويبارح البيت، وكان السواس قد اعدوا الطعام تحت احدى الاشجار. وما ان خرج بوغدان وراء البان، حتى اوقف اوباناس رومان عند المدخل. وقال القوزاقي:

— لا تغضب عليّ، يا اخ. واسمع ما سيقول لك اوباناس. هل رأيت حين القيت بنفسي على قدمي البان ورحت اقبل نعليه ليعطيني اوكسانا؟ اي نعم، كان الله معك، يا صاحبي... لقد جمعك الخوري بها بروابط الزواج وهذه مشيئة الاقدار، ما في ذلك شك! ولكن قلبي لن يحتمل ان يلعب هذا الشيطان الرهيب بها وبك. هي — هي! ليس يدري احد ما في قلبي... وخير ان اقبرهما في الارض الباردة بضربة من بندقيتي...

ويتطلع رومان الى القوزاقي فيساله:

— ويك، ايها القوزاقي، ألست مختل الشعور؟

لم اسمع ما راح اوباناس اذ ذاك يحكيه بصوت خافت في المدخل، ولكني رأيت رومان يربت على كتفه.

— ايه، يا اوباناس، اوباناس! كم في هذه الدنيا من ناس فاسدين مكاّرين. وانا في اعماق غابتي لا اعرف عن ذلك شيئا. هي — هي، يا حضرة البان، ان ما فعلته سيجلب لك الشر!..

ويقول له اوباناس:

— طيب، هيا اذهب الآن، ولا تتظاهر بانك تعرف شيئا، وعلى الاخص امام بوغدان. انك لست كبير العقل، وكلب السيد هذا خبيث ماكر. فخذ حذرك: لا تشرب كثيرا من خمرة البان، واذا ما ارسلك مع السواس الى المستنقع ليبقى هو نفسه هنا، فخذ السواس الى البلوطة العجوز ودلهم على الدرب الملتوي، وقل لهم انك ستجتاز الغابة قدما... وعد الى هنا باقصى السرعة.

فيقول رومان:

— طيب، ولن اجهز بندقيتي للصيد بخرطوش لقتل الطيور، بل برصاصة لقتل الدب.

وعلى هذا خرجا. وكان البان جالسا على السجادة فامر بان يؤتى بزجاجة وكأس ملأها بالخمرة وقدمها لرومان. هي — هي، يالها كأس جميلة كانت لدى البان، واما الخمرة فاطيب ايضا. كأس واحدة تجعل نفسك في عرس، والثانية تحمل قلبك على القفز في صدرك، واما الثالثة فتدحرج غير المعتاد عليها تحت المصطبة، اذا لم تحمله ربة البيت للنوم عليها.

هي — هي، اقول لك، لقد كان البان خبيثا! كان يريد لرومان ان يطيح به السكر ويفقده وعيه، ولكن ما من خمرة في الدنيا كانت بقادرة على الاطاحة برومان. وانه ليفرغ الكأس التي يقدمها له البان، ثم يفرغ الثانية، فالثالثة، وكأنه لا يشرب شيئا، سوى ان عينيه تلتهبان كعيني الذئب، وهو يفتل شاربيه الفاحمين ويغضب البان.

— هاكم ابن الشيطان هذا، كيف يجرع الخمرة بمرح، دون ان يرف له جفن! لو ان آخر غيره لكان يبكي منذ وقت بعيد، ولكن انظروا، يا ناس، انه لا يفعل غير ان يبتسم...

كان يعلم، هذا البان الابليس، ان الخمرة حين تجعل المرء يبكي، فما هي الا لحظة حتى يغيب عن وعيه. ولكنه اخطأ الظن هذه المرة. وقد اجاب رومان:

– وما الذي يدعوني للبكاء؟ ليس يحسن هذا بي. سيدي الرحيم جاء يشرب نخب صحتي، وانا اروح ابكي كالمرأة. اجدر بان يفعل ذلك اعدائي.

– اذن انت مسرور؟ – يسأل البان.

– هي – هي! وما الداعي لأن اكون غير مسرور؟

– ولكن أتذكر كيف دبرنا زواجك بالسياط؟

– وكيف لا اذكر ذلك؟ لهذا اقول اني كنت امرءا عديم الاحساس، لا يميز بين المر والحلو. السوط مر، وكنت افضله على المرأة. فشكرا لك، يا سيدي الرحيم، على تعليمك اياي، انا الاحمق، تذوّق العسل.

ويرد عليه البان قائلا:

–عال، عال. ومقابل ذلك، ستعمل معي معروفا بالذهاب مع السواس الى المستنقع للصيد؛

اصطد لي اكثر ما يمكن من الطيور، وعد حتما بديك احراش كبير.

فيسأل رومان:

– ومتى يريد البان ان يبعث بنا الى المستنقع؟

– لنشرب مرة اخرى. وسيغني لنا اوباناس اغنية، ثم تذهبون برعاية الله.

فينظر رومان الى البان، ويقول له:

– ان هذا لأمر غير ملائم: فقد تأخر الوقت الآن، وعدا ذلك فالرياح تضج في الغابة، والعاصفة ستهب في الليل. فكيف يمكن الآن اصطياد طائر متحرز الى هذا الحد.

على ان البان قد سكر، وهو في حال السكر سريع الغضب جدا. وما سمع رجاله يتهامسون: «رومان على حق، العاصفة ستهب ليلا»، حتى اخذته موجة من الغضب. فكانت ضربة منه بالكاس على الطاولة، وعيناه محملقتان. فسكت الجميع.

وما خلا من الخوف غير اوباناس وحده. فقد رمق البان بنظرة جانبية وقال له وهو يسوّي اوتار «الباندورا» ليغني بناء على أمره:

ــ عد الى صوابك، يا سيدي الرحيم! هل سبق لاحد ان ارسل رجالا في الليل الى الغابة المظلمة، ووقت العاصفة، لصيد الطيور؟

فانظر كم كان جريئا! خدم البان الآخرون، من الاقنان. فهم، كما هو معروف، يخافون. اما هو فقد كان رجلا حرا من الارومة القوزاقية. كان احد الشيوخ القوزاق، وهو عازف على «الباندورا»، قد جاء به طفلا صغيرا من اوكرانيا. وهناك، يا بنيّ، قام الناس بشغب في مدينة اومان، فسملوا عيني الشيخ القوزاقي، وقطعوا اذنيه، وافلتوه في هذه الحال. وهكذا اجتاز الاعمى المدن والقرى الى ان وصل الينا يقوده الصغير اوباناس. فاخذه البان العجوز لأنه كان من كبار هواة الاغاني الحلوة. ومات الشيخ اخيرا، وشب اوباناس في بيت السيد. وكان البان الجديد يحبه ويحتمل منه احيانا كلاما كان يمكن ان يسلخ بسببه جلد غيره.

وهكذا كانت الحال اذ ذاك: خيل للرجال، وقد غضب البان اول الامر، انه سيضرب القوزاقي، ولكنه قال بعد ذلك لاوباناس:

ــ اوه، اوباناس، اوباناس. انك فتى ذكي

ومع ذلك فلست تعلم، على ما يبدو، ان ليس ينبغي للمرء ان يدس أنفه بين مصراعي الباب اذا كان لا يريد له ان يجدع...

هكذا الغز له! وفي الحال ادرك القوزاقي اللغز، فاجاب البان باغنية. ايه، لو ان البان ايضا فهم الاغنية القوزاقية، لما كانت زوجته بكيت على جثمانه.

ــ شكرا على الدرس، ايها البان، وانا بالمقابل ساغني لك، فاسمع.

ومس اوتار «الباندورا».

ثم رفع رأسه، وشخص بابصاره الى السماء حيث كان يحوّم احد النسور، باسطا جناحيه، والرياح تطارد سحبا قاتمة، فسمع ذرى الصنوبر العالية تضج وتصخب.

وعزف لحنا آخر.

ايه، يا بني، انك لم تسمع عزف اوباناس شفيدكي، ولن تسمعه الآن ابدا! ليست «الباندورا» مع ذلك بآلة موسيقية معقدة، ولكن كم هي تجيد النطق في يد الخبير بها! حين كان يمر بانامله عليها، كانت تقول له كل شيء: كيف تضج غابة السنوبر القاتمة وقت العاصفة،

وكيف تهز الريح الاعشاب في السهب المقفر، وكيف توشوش قصبة الحشيش اليابسة فوق قبر قوزاقي عال.

كلا، يا بني، انك لن تعرف ابدا عزفا حقيقيا على «الباندورا». يأتى الى هنا شتى انواع الناس، ممن لم يكونوا فى بوليزيا فقط، بل في اماكن اخري ايضا، بل في اوكرانيا كلها: في تشيغيرين، فى بولتافا، في كييف، فى تشركاسي؛ ويقول هؤلاء ان عازفي «الباندورا» قد انعدموا، ولم يعودوا يسمعون في الاسواق الموسمية واسواق المدن. ولقد علقت «باندورا» قديمة عندي على الجدار. وكان اوباناس قد علمني العزف عليها، ولكني لم انقل فنه الى احد. فاذا مت، وهذا ليس بالبعيد، فلربما لن تسمع «للباندورا» نغمة في اي مكان من العالم. ذلك هو الامر!

واذ ذاك راح اوباناس يغني بصوت هادئ. لم يكن صوته قويا، ولكنه ذو غمة شجية تنفذ الى القلب. وما من شك، يا بني، في ان اوباناس قد ألف تلك الاغنية بنفسه للبان، ولطالما الححت عليه فيما بعد ان يغنيها، فما وافق ابدا. كان يقول:

– لم يعد لمن غنيت له هذه الاغنية وجود فى هذه الدنيا.

كان اوباناس، في هذه الاغنية، يقول للبان الحقيقة كلها، كان يقول له ما سوف يحدث، وكان البان يبكى، ودموعه تسيل على شاربيه. وواضح مع ذلك انه لم يفهم كلمة واحدة من الاغنية.

ايه، اني لم اعد اذكر هذه الاغنية، ولم يبق منها في ذاكرتي غير نتف قليلة.

كان القوزاقي يغني فيها مصير البان ايفان:

سيدي ايفان، ويها!..
واسع العلم خبير...
يعرف الشيء الكثير...
يعرف الباشق يجري
في السماوات ويفري
معشر الغربان فيها...
سيدي ايفان، ويها!
مع هذا... ليس يدري
ان في العالم يجري

غير هذا... ان طيره
ذلك الباشق نفسه
تلطم الزاغة رأسه
ان دنا من عشها...

وها انا، كما ترى يا بني، احسب اني الآن اسمع هذه الاغنية وارى اولئك الناس من جديد: القوزاقي واقف يحمل « باندورته »، والبان جالس على السجادة يبكي، محني الرأس. ورجاله المتحلقون حوله يتلاكزون بالاكواع. وبوغدان الشيخ يهز برأسه... والغابة تضج ضجيجها الآن. والمعزف يرسل الحانا خافتة حزينة، والقوزاقي يغني الزوجة الباكية على البان ايفان:

هي تبكي البان ايفان وتنحب...
هي تبكي... وغراب البان ينعب...

ايه، لم يفهم البان الاغنية، بل قال وهو يمسح دمعه:

– اي نعم، هيا امض، يا رومان! وهلموا الى الخيل، ايها الفتيان! وانت، يا اوباناس،

امض معهم، فقد شبعت سماعا لاغانيك!.. انها جميلة، بيد ان الامور التي تحكيها لا يتفق ابدا ان تحدث في الحياة.

ولكن القلب القوزاقي قد رقّ لدى غنائها، وغامت عيناه. وانه ليقول للبان:

– اوه، ايها البان، ايها البان. يقول الشيوخ عندنا: الحقيقة فيما تقول الحكاية، الحقيقة فيما تقول الاغنية. بيد ان الحقيقة، في الحكاية، كالحديد يعروه الصدأ لكثرة ما جاب في انحاء العالم من يد الى يد... اما الحقيقة في الاغنية فكالذهب لا يعروه اي صدأ... هذا ما يقول الناس الشيوخ.

وتصدر عن البان حركة تعبر عن عدم الاكتراث.

– طيب، هذا ممكن عندكم، اما عندنا فليس كذلك. هيا امض، يا اوباناس، امض، لقد شبعت من اغانيك.

لبث القوزاقي مكانه لحظة، ثم خرّ ساجدا، فجاة، على قدمي البان:

– اسمعني، ايها البان! اركب جوادك والحق بزوجتك: قلبي يحدثني بامور سيئة.

فغضب البان اذ ذاك ايما غضب، ودفع القوزاقي بقدميه كما يدفع الكلب.

— تنحّ عني! لست بقوزاقي على ما ارى، بل امرأة! تنحّ عني اذا كنت تريد ان لا يصيبك مكروه... وانتم، ما لكم واقفون في جمود هكذا، ايها القذرون! الم يعد للبان كلمة تسمع وتطاع؟ اذن، فلأريكم اشياء لم يسبق قط لآبائكم ان رأوها من آبائي!..

هبّ اوباناس واقفا، كأنه السحابة الدكناء، وتبادل النظرات مع رومان الواقف جانبا مستندا على بندقيته كأن ليس يعنيه من الامر شيء.

وحطم القوزاقي «باندورته» على شجرة! فتطايرت «الباندورا» شظايا مرسلة انينا رن في ارجاء الغابة كلها. وقال:

— طيب، فلتعلّم الشياطين في العالم الآخر من لا يريد الاصغاء الى نصيحة حكيمة... يبدو انك في غير حاجة الى خادم أمين.

وقبل ان يتاح للبان الوقت للجواب، قفز اوباناس على صهوة جواده، وابتعد. وركب السواس خيولهم ايضا. وتقلد رومان بندقيته

ومضى من جهته غير ناس ان يصيح باوكسانا وهو مار قرب البيت:

— انيمي الصغير، يا اوكسانا. آن له ان ينام! واعدّي السرير للبان.

وبعد قليل، اختفى الجميع في الغابة، من هذه الجهة، هاكها. ودخل البان البيت، تاركا جواده مربوطا الى شجرة. وكان الليل قد ارخى سدوله، والغابة تصخب وتضج، والمطر يهطل رذاذا، تماما كما يهطل الآن... وضعتني اوكسانا على المتبنة لانام، ورسمت فوقي اشارة الصليب لليل... وتسمعت فاذا اوكسانا تبكي.

ايه، لم اكن انا الصبي الصغير لافهم شيئا مما كان يجري حولي اذ ذاك. ورحت اتقلب على الهشيم، متسمعا الى العاصفة وقد بدأت اغنيتها في الغابة، وبدأ النوم يداعب جفوني.

هي — هي! اني لأسمع، فجاة، من يمشي حول البيت... واقترب الرجل من الشجرة، وراح يفك رباط حصان البان. واخذ الحصان يشخر مغضبا ويضرب الارض بحوافره. وبعد قليل خفتت الضجة فى الغابة... ثم سمعت من

جديد من يركض بجواده الى البيت. واذ بلغه قفز الى الارض واسرع الى النافذة.

– بان، بان! – راح يصيح صوت بوغدان العجوز – اوه، ايها البان، افتح حالا! هذا القوزاقي اللعين بيّت شرا بالتاكيد. افلت حصانك في الغابة.

وما اتسع الوقت للعجوز ان يقول اكثر من هذا. فقد امسك به احدهم من الخلف. واعتراني الخوف، اذ سمعت شيئا يسقط...

فتح البان الباب، وانطلق الى الخارج ببندقيته، الا ان رومان امسك به في المدخل من ناصيته وطرحه بضربة عل الارض...

ويقول البان، اذ يرى سوء حاله:

– اوه، دعنى يا رومان! الا تذكر حسن صنيعى لك؟

فيجيبه رومان:

– اذكر، يا بان الشيطان، حسن صنيعك لي ولزوجتي. وسارده لك الآن...

ويقول البان من جديد:

– دافع عني، يا اوباناس، يا خادمي الأمين! كنت احبك محبتي لولدي.

ولكن اوباناس يجيبه:

– طردت خادمك الأمين طرد الكلاب. كنت تحبني محبة الهراوة للظهر، فهلمّ احبَني الآن محبة الظهر للهراوة. لقد رجوتك، وتضرعت اليك، ولكنك لم تشأ الاصغاء لي...

واذ ذاك راح البان يتوسل الى اوكسانا:

– تشفعي لي، يا اوكسانا، ان لك قلبا طيبا.

فخرجت اوكسانا على عجل واشبكت ساعديها على صدرها:

– تضرعت اليك، ايها البان، وعلى قدميك تمرغت. قلت لك: عف عن جمالي العذري، لا تلوث شرف امراة متزوجة. فما عرفت الشفقة، وها انت الآن تطلبها... اوه، ماذا استطيع، انا المسكينة، ان افعل؟

ويصرخ البان ايضا:

– دعوني، فانكم بسببى ستذهبون للموت في سيبيريا...

فقال اوباناس:

– لا تزعج نفسك بشأننا ايها البان. سيكون رومان في المستنقع قبل سواسك، واما انا، الوحيد في الدنيا بفضلك، فلن افكر طويلا

بمصيري. ساتقلد بندقيتي، وامضي الى الغابة. وساجمع عصابة من الفتيان الشطّار ونقطع الطرقات... سنخرج في الليل الى الطريق، فما نصل قرية حتى نمضي رأسا الى بيت البان فيها. ايه، لملم البان يا رومان، ولنحمل حضرته الى الخارج تحت المطر.

فراح البان يتخبط ويصرخ، وروحان يشخر كالدب، والقوزاقي يسخر بالبان. ثم خرجا.

اما انا فاعتراني الخوف، واسرعت راكضا في البيت بحثا عن اوكسانا. فوجدتها جالسة على المصطبة وقد امتقع وجهها كالجدار.

وفي الغابة كانت تهدر عاصفة حقيقية. كانت اشجار الصنوبر تصيح بجميع اصواتها، والرياح تعوي، والصواعق تنفجر احيانا. وفيما انا جالس مع اوكسانا قرب المدفئة، سمعت فجاة صوت رجل يئن في الغابة. اوه، لقد كان هذا الانين من شدة التاثير في النفس بحيث ينقبض قلبي لذكراه حتى الآن، مع كثرة ما مر على ذلك من السنين. وسألت اذ ذاك:

– من يئن هكذا في الغابة، يا حبيبتي اوكسانا؟

فاخذتني اذ ذاك بين ساعديها وراحت تهدهدني، وتقول:

– نم يا صغيري، لا شيء! لا شيء... هذا ضجيج الغابة... فقط!

كانت الغابة تضج حقا، اوه، ويا لها من ضجة!

ولبثنا هكذا بضع لحظات اخرى، ثم سمعت في الغابة ما يشبه الطلقة النارية.

– حبيبتي اوكسانا، من يطلق النار من البندقية؟

فراحت المسكينة تكرر قائلة وهي ما تزال تهدهدني:

– اسكت، يا صغيري، اسكت، انها صاعقة من السماء نزلت على الغابة.

ومن غير ان تنقطع عن البكاء، راحت تشدني بقوة الى صدرها، وهي تتمتم تمتمة الام تهدهد لطفلها: «يا صغيّر، يا صغيّر، الغابة تضج، الغابة تضج، يا صغيّر...»

وعلى ساعديها نمت...

واستيقظت، صباحا، يا بنيّ، فوجدت

الشمس ساطعة، واوكسانا نائمة لوحدها في البيت، بثيابها كلها. واتذكر ما جرى في العشية، فاحسب انه كان حلما من الاحلام.

كلا، لم احلم في منامي، لم يكن ذلك حلما، بل هو الواقع بعينه. خرجت راكضا الى الغابة، فاذا صغار الطير تزقزق على الاشجار، والندى يبرق على الاوراق. ووصلت الى الدغل فوجدت البان طريحا هناك والى جانبه سائسه. كان البان هادئا شاحب الوجه، والسائس اشيب الشعر كريش الحمامة البيضاء، وعلى سيماه القسوة كأنه على قيد الحياة. وعلى صدر البان، وعلى صدر السائس ايضا، دماء جافة.

. . . .

واذ رأيت الشيخ يسدل رأسه ويصمت، سألته:

— اي نعم، وماذا حل بالآخرين؟

— هي-هي! كل شيء جرى كما قال القوزاقي اوباناس. عاش هو نفسه طويلا في الغابة، قاطعا الطرقات مع فتيانه، مهاجما منازل الاقطاعيين. كان هذا مقدّرا على القوزاق. اباؤه كانوا هايداماك، وكان نصيبه هو ايضا. وطالما

مر بنا، في هذا الكوخ بالذات، وفي الاكثر حين لم يكن رومان هنا. كان يأتي فيجلس ويغني ويعزف على «الباندورا» واحيانا كان يأتي مع رفاقه، - كان رومان واوكسانا، يستقبلانه استقبالا حسنا على الدوام. ايه، اقول لك الحق، ان الامور لم تكن تمضى بدون خطيئة. هاك، حين سيعود زاخار ومكسيم عما قريب من الغابة، انظر اليهما كليهما جيدا. انا لم اقل شيئا في الامر، ولكن من عرف رومان واوباناس يستطيع للوهلة الاولى ان يعرف لمن يشبه كل منهما، برغم انهما ليسا ولدين لذينك الرجلين، بل حفيدين... تلك هي، يا بني، الامور التي جرت على مرأى مني في هذه الغابة...

ولكن ضجيج الغابة يتعالى ويشتد، وستهب العاصفة!

٣

نطق الشيخ بالكلمات الاخيرة من حكايته بصوت بدا عليه الاعياء. كان انفعاله كما يبدو قد زال وحل محله التعب. فلسانه الآن منعقد، ورأسه في اهتزاز، وعيناه مغرورقتان بالدمع.

وكان المساء قد جثم على الارض، وحطت العتمة على الغابة، وراحت اشجار الصنوبر تضطرب حول البيت كأنها البحر في هيجانه، والذرى القاتمة تترنح كأعراف الموج وقت هبوب العاصفة.

واعلن نباح الكلاب المرح عن قدوم اصحاب البيت. وكان حارسا الغابة مقبلين على الكوخ بخطوات سريعة، ومن خلفهما موتريا تدفع امامها، وهي لاهثة، البقرة التي حسبوا انها ضاعت. واكتمل جمعنا.

وما هي الا بضع دقائق حتى استقر بنا المقام جميعا في الداخل. كانت النار تتراقص بمرح في المدفئة، وموتريا تعد طعام العشاء.

ورغم ان هذه لم تكن المرة الاولى التي ارى فيها زاخار ومكسيم، فقد كنت اذ ذاك اتأملهما باهتمام شديد. كان وجه زاخار قاتما، موصول الحاجبين في مستهل جبين شديد الانحدار منخفض، غليظ النظرة. ومع ذلك فقد كان في وسع المرء ان يميز في ملامحه تلك الطيبة التي هي من شمائل القوة.

وكان مكسيم ينظر نظرات صافية صريحة

بعينين خضراوين تحسبهما تداعبانك وتلاطفانك، ومن حين لآخر يهز شعره المتموج، ويبتسم ابتسامة تنطوي على عنصر خاص ينقل اليك عدواها. وقد سألني:

– ألم يرو لك الشيخ حكاية جدنا القديمة الصحيحة؟

– اجل، لقد رواها لي – اجبته.

– اي نعم، انه هكذا دائما! حين يأخذ ضجيج الغابة في الاشتداد يتذكر الزمن الغابر. والآن لن ترقد له في الليل عين.

– كالطفل الصغير تماما! – اضافت موتريا، وهي تصب حساء الملفوف للشيخ.

وما كان يبدو على هذا الشعور بان الحديث يتناوله. فقد كان من حين لآخر يبتسم ابتسامة بلهاء، وقد خارت قواه كليا، ورأسه في اهتزاز. ولكن حين هبت على البيت من الخارج عصفة من الرياح المعربدة في الغابة، اخذ القلق ينتابه وراح يصغي مرهفا اذنيه، وعلى وجهه تعبير من الهلع.

وبعد قليل صمت كل شيء في المنزل الغابي الصغير. وكانت ذبالة الشمعة الموشكة

على الانطفاء ترسل وميضا راجفا، والصرصور يردد اغنيته الرتيبة المتواترة... فيما كان يسمع في الغابة ضجيج يخيل للمرء انه صادر عن الوف الاصوات الخافتة العنيفة تتداعي بلهجة منذرة وسط الظلمات. فكان يبدو كأن ثمة قوة هائلة تتآمر صاخبة في الظلام، وهي على اهبة لانزال الضربات من جميع النواحي بهذا الكوخ الحقير الضائع في الغابة. ومن حين لآخر، كان هذا الهدير المبهم يشتد ويتسع ويتراكض كمدّ البحر، فيرتعد الباب اذ ذاك كأن ثمة من يدفعه من الخارج، وهو يصفر، بينما كان الاعصار الليلي ينغم في مدخنة المدفئة انينا مشؤوما ينقبض له القلب. وبعد ذلك كانت العصفات تهدأ حينا من الوقت، فيحل صمت منذر يضغط على القلب الواجف الخائف، الى ان يهب من جديد صخب يخيل للمرء معه ان الصنوبرات المعمرة قد تآمرت على ان تنخلع من الارض فجأة لتطير الى الفضاء المجهول على اجنحة الاعصار الليلي.

واستسلمت لحظات لخدر مبهم ما لبث ان تبدد. كانت العاصفة تزمجر في الغابة بجميع

اصواتها وجميع نغماتها. ومن حين لآخر كانت شعلة ذبالة الشمعة تنتعش، فتضيُ البيت. كان الشيخ ما يزال جالسا على المصطبة، يتلمس بيده، كأنما هو يبحث عن شخص بجانبه. وعلى وجه الشيخ المسكين كان ينعكس تعبير من الرهبة، بل ومن تبرم الطفل وضيقه. وفي تمتمته المثيرة للشفقة، كنت اميز هذا القول:

– حبيبتي اوكسانا، من ذا الذي يئن في الغابة؟

وتلمست يده تلمس المحموم وارهف اذنيه. وقال من جديد:

– هي–هي! ما من احد يئن. انه ضجيج العاصفة في الغابة... لا شيء غير الغابة تضج، تضج...

ومضت بضع دقائق. كانت النوافذ الضيقة تضيُ بانعكاسات البرق الزرقاوية، راسمة اشباح الاشجار العجيبة وراء النافذة، ثم تختفي في الظلمات وسط هدير العاصفة المحنق. ثم شع نور يبهر الابصار، فخسف وميض الشمعة الشاحب، ودوّت العاصفة بضربة صاعقة سقطت في مكان غير بعيد.

ومن جديد اضطرب الشيخ في قلق على المصطبة.

– حبيبتي اوكسانا، من يطلق النار هكذا في الغابة؟

وسمع صوت موتريا الهادئ يقول قرب المدفئة:

– نم، يا شيخ، نم. انه هكذا دائما. حين تزأر العاصفة، يظل طول الوقت ينادي اوكسانا. نسي ان اوكسانا لم تعد في هذه الدنيا منذ زمن بعيد. ايه!

وتثاءبت موتريا، وتمتمت بصلاة، وما عتم الصمت ان ساد البيت. لا يعكره غير صخب الغابة ولجلجة الشيخ القلقة:

– الغابة تضج، الغابة تضج... اوكسانا، ياحبيبتي...

وبعد قليل هطل وابل مدرار فغطى صخب سيول الامطار على عصفات الرياح وانات غابة الصنوبر...

١٨٨٦

12-71



فتاة غريبة

(نبذة من السنوات الثمانين)

١

– هل بتنا على قرب من المحطة، ايها السائق؟

– لم نقترب بعد. هيهات ان نصلها قبل العاصفة الثلجية. انظر كيف غطى الندى المتجمد كل شيء، انها ريح الشمال التي تحمل الثلج والمطر معا.

اجل، الأمر واضح، اننا لن نسبق العاصفة الثلجية. والبرد يزداد لسعا مع حلول المساء. وتحت الزلاجات يسمع صرير الثلج، وفي غابة الصنوبر المعتمة تدمدم ريح الشتاء، ريح الشمال. اغصان الشوح تمتد حتى درب الغابة الضيق، وتتمايل في اكتئاب وعبوس خلال الغسق المبكر.

الجو بارد والوضع مزعج. فالعربة الضيقة تسحق الاضلاع، يضاف الى هذا ان سيوف الدركيين ومسدساتهما تتحرك باستمرار على

نحو مزعج. وجرس الزحافة يردد اغنيته الطويلة الرتيبة المتوافقة واغنية العاصفة.

ولحسن الحظ يبدو في طرف غابة الصنوبر المصطخبة الضياء المنفرد المنبعث من بيت المحطة.

وفي ذلك البيت القروي المعتم، الشديد التدفئة، المسوّد بفعل الدخان، ينفض الدركيان المرافقان لي الثلج الذي كان يغمرهما. المسكن فقير منقبض السحنة. تضع ربة البيت عود خشب مشتعلا مدخنا على مسنده.

— أليس لديك ما نأكل يا ربة البيت؟

— ليس لدينا شيء البتة...

— ولا سمك؟ فالنهر ليس ببعيد.

— كان عندنا سمك، وقد التهمه كلب الماء كله.

— طيب، بطاطا...

— يا رباه! تجمدت عندنا البطاطا هذا العام، كلها تجمدت.

لم يبق في الامر حيلة؛ ورأينا، ويا للعجب، سماور. وسرى الدفء في عروقنا من الشاي، وجاءت ربة البيت بخبز وبصل في سلة صغيرة.

كانت العاصفة المنفلتة في الخارج تذرّ على النوافذ ثلجا دقيقا، ووميض الخشب المشتعل يترجرج احيانا ويرتجف. وتقول العجوز:

— لن يكون في وسعكم متابعة الدرب، فباتوا ليلتكم هنا.

فيقول احد المرافقين:

— وما العمل، لنبت هنا. وانت، يا سيدي، لا شيء يستحثك للوصول. انت ترى اية بلاد هذه!.. وهناك اسوأ ايضا، صدقني.

وصمت كل شيء في المنزل الريفي. حتى ربة البيت نامت بعد ان صفت مغزلها وغزولها واطفأت النور. وساد الظلام ومعه سكون لا يعكره غير عصفات الريح المفاجئة.

لم يكن النوم يجد سبيله اليّ. فقد كان صخب الاعصار يبعث في رأسي افكارا مرهقة، متعاقبة.

— لست تستطيع النوم ،على ما يبدو، يا سيدي؟— سأل المرافق — «الرئيس» — نفسه، وهو رجل على جانب من الأنس، ذو وجه لطيف، بل ينم عن حظ من الثقافة، ومن حسن المعشر، وهو يعرف عمله ولذلك فهو لا يتقيد بالشكليات في

وظيفته. واثناء الدرب يغض الطرف عن المنغصات والشكليات التي لا جدوى منها.

– كلا، لا استطيع النوم.

ويمضي قسط من الوقت في سكون، ولكني اسمع جاري ايضا غير نائم. يبدو انه هو ايضا لا يستطيع النوم؛ ورأسه تتسلط عليه بعض الافكار. اما الدركي الآخر – «ماموره» الشاب – فينام نومة رجل معافي شديد التعب. ومن حين لآخر، يتمتم بكلمات غير مفهومة.

ويستأنف صف الضابط قائلا بصوته الرتيب العميق:

– يدهشني ان ارى كيف تقضون حياتكم، انتم معشر الشبان النبلاء، المتعلمين...

– يعني؟

– ايه، يا سيد! لعلكم تحسبوننا غير قادرين على الفهم!.. اننا ندرك تماما ان هذا النوع من الحياة ليس هو الحياة التي عشتموها واعتدتموها منذ الطفولة...

– سخافات ما تقول... لقد اتسع لنا الوقت للاقلاع عن تلك العادات.

فيقول بلهجة تنم عن الارتياب:

– أصحيح انكم تجدون المتعة في هذا؟

– وهل هذا ممتع لكم؟

وحل صمت. بدهي ان غافريلوف (ولنطلق هذا الاسم على محدثنا) فريسة لبعض الافكار.

– كلا، ياسيدي، ليس هذا بممتع لنا نحن ايضا. وصدقني، اننا نشعر احيانا بما يشبه القرف من الحياة... ولست ادرى ما مصدر هذا، ولكن ثمة لحظات يحس بها المرء ان سكينا مشحوذة تطعنه، لا اكثر ولا اقل.

– لعل الخدمة قاسية؟

– الخدمة هي الخدمة... فهي ليست، بالطبع، نزهة للتسلية، والرؤساء قساة – لا بد من قول هذا – ولكن ليس هذا هو الامر، مع ذلك.

– فما الامر اذن؟

– من يدرى؟..

وحل صمت جديد.

– ما هي الخدمة؟ يكفي ان يكون سلوك المرء مضبوطا. ومع اني ساعود الى بيتي عما قريب، فاني مدعو لاداء الخدمة العسكرية، وسانهى مدتي. يقول لي الرئيس: «ابق، يا

غافريلوف، فاي عمل لك في القرية؟ انك لذو سجل حسن...»

— وهل ستبقى؟

— كلا. صحيح اني في البيت ايضا... لم اعد آلف شغل الفلاح... والطعام ايضا. ثم نمط الحياة ايضا، طبعا... تلك الفظاظة...

— فما الأمر اذن؟

ويفكر فيقول:

— هاك، يا سيدي، ساحكي لك، ان لم يكن في ذلك ما يضجرك، شيئا... حدث لي...

— احك...

٢

دخلت الخدمة سنة ١٨٧٤، في كوكبة من الخيالة ألفت رأسا من المجندين الجدد. كنت اؤدي خدمتي اداء حسنا — يمكن قول ذلك — بحماسة، وغالبا في النوبات الخاصة: في الاستعراضات، في المسرح. وتعلم انت نفسك اي شيء هذا. كنت متعلما بعض الشيء، فكنت دائما

موضع نظر الرؤساء. ويرى المقدم اجتهادي، وهو ابن بلدي، فيستدعيني ذات مرة ويقول لي: «غافريلوف، ساقترح ترفيعك لرتبة صف ضابط... فهل كنت في مهمة؟» — ابدا، يا صاحب السعادة. — فيقول: «طيب، ساعينك في المرة القادمة كمامور، وسترى ان ذلك ليس بالامر المستعصي». فاجيب: — طيب، يا صاحب السعادة، تحت امركم.

ما كان قد سبق لي الذهاب مرة واحدة في مهمة، يعني مع اناس من وسطكم. لنقل ان هذا الأمر فعلا غير شديد العسر ولكن لا بد، وهذا ما تعرفه، من فهم التعليمات، ولا بد للمرء ان يكون سريع البديهة. ايوه، طيب...

وبعد اسبوع يستدعيني المناوب لمقابلة الرئيس وكذلك واحدا من صف الضباط. فنذهب لمقابلته. فيقول: «ستذهبان في مهمة». واضاف قائلا لصف الضابط: «وستاخذ هذا تحت امرتك. لم يسبق له قط ان كان في مهمة. فافتحا عيونكما، وانتبها، وليكن مسلككما، يا اولاد، مسلك البواسل. سيكون عليكما ان تخفرا من القلعة سجينة سياسية، هى الآنسة موروزوفا، من

النبلاء، هي ذي التعليمات لكما. فاقبضا المال غدا، ومع السلامة!..»

وذهب معي صف الضابط ايفانوف رئيسا وكنت انا مأمورا مثلما اصطحب معي الآن دركيا آخر. ويسلم قائد الفصيل خرجا رسميا. فهو الذى سيقبض المال، ويأخذ الاوراق الرسمية. انه يوقع الاوراق ويسجل الحسابات، والدركي البسيط مساعد له: يرسله الى هنا وهناك، يكلفه بحراسة الامتعة، وهلم جرا...

ايوه، طيب. وفي الصباح، عند بزوغ الفجر، نخرج من عند الرئيس. فارى ان صاحبي ايفانوف قد تسنى له ان يشرب كأسا من الخمرة في مكان ما. كان، بصريح العبارة، رجلا في غير محله: وقد انزلت رتبته فيما بعد... فعلى مرأى من الرؤساء كان يبدي الحماسة، ككل صف ضابط طيب، حتى لقد كان يكتب تقارير عن الآخرين. ولكنه ما ان يغب عنهم حتى يعود الى طبيعته، ويكون اول ما تنصرف اليه عنايته ان يسكر!

ونصل الى القلعة، فنقدم الاوراق كما ينبغي، ونظل ننتظر واقفين على اقدامنا. كنت متلهفا لمعرفة اية آنسة هذه التي ينبغي لنا

ان نخفرها الى مكان بعيد حسب الدرب المرسوم. وقد تبعنا الدرب نفسه الذي سرناه الآن، سوى انها كانت مرسلة الى مركز قضاء، لا الى قرية. وللمرة الاولى، كنت ممتلئا بالفضول: ماذا يمكن ان تكون هذه المعتقلة السياسية؟

انتظرنا هكذا ساعة من الوقت، بينما كانوا يجمعون امتعتها. وكانت هذه الامتعة في صرة صغيرة – تنورة، وما اشبه، تعرف انت ذلك. وكانت ثمة كتب ايضا، ولا شيء زيادة عن ذلك. فاقول في نفسي: واضح ان اهلها ليسوا باثرياء. وحين جاؤوا بها، تأملتها. فبدت لي صغيرة جدا، بل تكاد تكون طفلة. شعر ذهبي في ضفيرة واحدة، وفي الوجنتين احمرار. ولكني رأيت فيما بعد ان بشرتها شاحبة تماما، ولقد ظلت شاحبة طول الطريق. وعلى الفور حزنت لها... انا، طبعا، اعتقد... السلطة، اعذرني... لا تعاقب عبثا... فهي اذن قد ارتكبت عملا ما في السياسة... طيب، ولكن هذا لا يمنع... كان امرها محزنا، محزنا جدا، اي نعم!

وشرعت ترتدى ثيابها: معطف، حذاء من المطاط... وعرضت علينا امتعتها حسب الاصول:

فالتعليمات تلزمنا بتفتيش الامتعة. ونسألها: «نقودك؟». كان معها روبل وعشرون كوبيكا. فيستلمها قائد الفصيل، ويقول لها: «لا بد لى من تفتيشك، يا آنسة».

فكم تضرج وجهها اذ ذاك! التهبت عيناها، واحمر خداها. والشفتان رقيقتان، مغضبتان... ونظرت الينا نظرة لم اعد اتمالك معها نفسي — صدقني — بل لم اعد اجسر على الدنو منها. ولكن الرئيس كان قد شرب خمرا — كما هو معلوم. فمشى اليها رأسا، وقال: «انا مجبر. عندي تعليمات!..»

واذ ذاك تصرخ صرخة حملت ايفانوف نفسه على التقهقر من امامها. وانظر اليها: لم يعد في وجهها الشاحب نقطة دم، وغامت عيناها، فهي في غيظ شديد... وتخبط الارض بقدمها، ويتدفق من بين شفتيها سيل من الكلام، ولكن علي ان اعترف باني ما كنت اصغي جيدا الى ما تقول... ويخاف الحارس هو ايضا، فيأتي بماء في قدح، ويرجوها قائلا: «هدئي من روعك، ارجوك. ارحمي نفسك!». ولكنها لا تكترث له البتة. «يا لكم من برابرة، عبيد!»، وغير ذلك من السفاهات

الاخرى. لك ان تقول ما تشاء: ولكن معارضة السلطة ليست بالأمر الحسن. ورحت افكر: هذه الافعى الصغيرة... من بنات الاكابر...

وهكذا لم نفتشها. فقد اخذها الحارس الى غرفة اخرى، ومنها عادا في الحال مع الحارسة. واعلن قائلا: «ليس معها شيء». وفي هذه الاثناء، كانت تحدق في وجهه، كأنما تسخر منه، بعينين ساخطتين. اما ايفانوف فمعلوم انه مهتم بهذا اي اهتمام، فهو يكتفي بان ينظر متمتما: «هذا مخالف للقانون، عندي تعليمات!..» ولكن الحارس لا يكترث له، لانه بالطبع، كان في سكر. ومن يصدق السكران!

ومضينا في طريقنا. وفيما نحن نجتاز المدينة، كانت هي طول الوقت تنظر من خلال نوافذ العربة، كأنما لتودع، او لتحاول رؤية اصدقاء لها. ولكن ايفانوف انزل الستائر بغتة على النوافذ. فقطبت حاجبيها وتلبدت في زاوية دون ان تنظر الينا. فما صبرت على ذلك، اعترف لك: فقد رفعت طرف الستارة كأنما اريد ان اتطلع الى الخارج، بحيث تستطيع هي ان ترى... ولكنها لم تلق نظرة واحدة، ولبثت فى زاويتها،

وهي تعض شفتيها من الغضب... تعضها حتى تدميهما، على ما كنت انا نفسي اتصور.

وسافرنا بالسكة الحديدية. كان الجو صحوا في ذلك اليوم. وكان الفصل خريفا، في شهر ايلول (سبتمبر)، حين جرى هذا الأمر. الشمس ساطعة، ولكن ثمة نسمات خريفية رطبة تهب. وما ان حللنا في العربة حتى انزلت زجاج النافذة وانحنت الى الخارج، متعرضة للريح، وظلت جالسة هكذا. والتعليمات، كما تعلم، لا تسمح بفتح النوافذ، ولكن ايفانوف ما ان استرخى في عربة القطار حتى راح يشخر، وما كنت اجسر على ان اقول لها ذلك. وتجاسرت اخيرا فاقتربت منها وقلت: «ارفعي الزجاج، يا آنسة». فظلت صامتة كأن الكلام غير موجه اليها. فلبثت واقفا الى جانبها، ثم قلت لها من جديد:

—ستصابين بالرشح، يا آنسة، فالطقس بارد.

فالتفتت وصوبت اليّ عينين واسعتين تعبران عن الدهشة... وقالت وهي تنظر اليّ هذه النظرة:

— دعني! — ثم اطلت برأسها من النافذة من جديد. فابتعدت عنها ملوحا بيدي.

وبدا عليها الاطمئنان، فرفعت الزجاج، ولفت نفسها بمعطفها الصغير لتتدفأ. كانت الريح رطبة، كما قلت لك، باردة. ثم عادت الى النافذة من جديد، عارضة نفسها كليا للنسيم. يبدو انها كانت، بعد السجن، عاجزة عن اشباع ناظريها. بل لقد رأيتها تنشرح، ونظراتها شاردة في المسافات البعيدة، وتبتسم... وما كان احلى النظر اليها اذ ذاك!.. اقول لك الحق...

وصمت المتحدث، وقد غرق في افكاره. ثم استأنف كلامه، على نحو لا يخلو من بعض الارتباك، على ما يبدو:

— لم اكن، بالطبع، قد ألفت هذا... وبعد ذلك خفرت كثيرين غيرها، واعتدت ذلك. ولكن الأمر بدا لي غريبا في تلك المرة. فكنت افكر: الى اين نسوق مثل هذه الطفلة... وعدا ذلك... لا تصدر حكمك عليّ، يا سيدي، اذا انا اعترفت لك: لماذا — كنت اقول لنفسي — لا استأذن المقامات العليا وآخذها زوجة لي... سأخرج تلك الاهواء من رأسها. لا سيما وانا في الخدمة...

دماغ قاصر، طبعا... زاخر بالحماقات... هذا ما استطيع ان ادركه الآن... وحين حكيت ذلك للخوري اثناء الاعتراف، قال لي: «عن طريق هذه الفكرة وحدها دخلت الخطيئة نفسك. فهي، بالتاكيد، لا تؤمن بالرب...»

كان علينا ان نسافر بالزحافة من كوستروما. وكان ايفانوف في سكر لا مثيل له: فما كان يستيقظ الا ليشرب من جديد ولدى خروجه من عربة القطار، راح يترنح في مشيته. وفكرت في نفسي: تبًا له، ليس ينقص الا ان يضيع مال الدولة. واذا بصاحبي يلقي بنفسه في الزحافة، ويستلقي، ويروح يشخر في الحال. وتجلس هي بجانبه، في وضع غير مريح، ملقية عليه نظرة كما لو كان، لنقل، حشرة من الحشرات. تلبدت في زاوية، متقبضة متكمشة، متحاشية اي تماس به. واما انا، فقد جلست على مقعد الحوذي. وما ان سرنا في الدرب، حتى اخذت الرياح تهب من الشمال، وشعرت بالرعدة تنتابني. وجاءتها نوبة عنيفة من السعال، فوضعت منديلها على شفتيها فرأيت عليه دما. لكانما شك احد قلبي بابرة. قلت لها:

— أيمكن هذا، يا آنسة؟ انك مريضة، وتقومين بهذه السفرة، في الخريف، والجو بارد!.. أمسموح حقا!

فصوبت اليّ نظرتها، ثم اخذ يغلي فيها شيء من جديد. وقالت:

— ما لك، أانت مخبول؟ ألا تفهم اني لا اسافر برغبة مني؟ شيء عال. هو الذي يخفرني ويتدخل ايضا بابداء شفقته عليّ!

— كان عليك ان تقولي للرؤساء — قلت لها — كان عليك ان تعرضي نفسك لدخول المستشفى بدلا من السفر في مثل هذا البرد. فالدرب امامنا ليس بالقصير!

— والى اين؟ — سألت.

وتعلم انت اننا ممنوعون منعا باتا من اعلام المجرمين بالمكان الذي نحن مأمورون بان نسوقهم اليه. واذ رأت ارتباكي، حولت وجهها عني، واستأنفت تقول:

— لا حاجة، انا سألت بصورة عفوية... لا تقل شيئا، واهتم بامورك، ولا تتدخل بشؤوني.

فلم اعد اطيق صبرا. وقلت لها: اليك الى اين ينبغي ان تذهبي. وليس هذا بالمكان القريب.

فعضت على شفتيها، وقطبت حاجبيها، ولم تنبس ببنت شفة. ورحت اهز برأسي... ذلك هو الأمر، يا آنسة... انت فتية، ولست تعلمين بعد ما يعني هذا!

كنت في كدر شديد... وفي غضب... ولكنها نظرت اليّ من جديد وقالت:

— لست على حق في تفكيرك هذا. اني اعرف جيدا ماذا يعني هذا، ومع ذلك لم ادخل المستشفى. شكرا! اذا كان لا بد لي من الموت، فخير لي ان يكون موتي بحرية، بين جماعتي. على اني قد اشفى، ولكن وانا مطلقة السراح، لا في مستشفى سجنكم. وقالت: — أتحسب اني مرضت من الريح، من لفحة برد؟ كلا، ابدا!.. فسألتها: «ألك اهل هناك اذن؟»، اذ قد سبق لها ان قالت لي انها تفضل ان تشفى بين **جماعتها**.

— كلا ليس لي هناك لا اهل ولا معارف. ليس يجمعني بتلك المدينة اي جامع، ولكن فيها بالتاكيد منفيين مثلي، رفاقا. — فدهشت لتسميتها الغرباء جماعتها. وقلت لنفسي: أيمكن ان احدا سيلقاها هناك، وهي خالية الجيب من المال، فيقدم لها الشراب والطعام، ودون ان

يعرفها؟.. ومع ذلك فقد كففت عن توجيه الاسئلة اليها، اذ رأيت حاجبيها يرتفعان، تعبيرا عن الاستياء من اسئلتي.

وقلت لنفسي: طيب... ايوه، ليكن! انها لم تشعر بالحاجة بعد. ستتلمس البؤس وتتعلم، حتما، ما يعني ان يعيش المرء بعيدا عن اهله...

وفي المساء غطت السحب السماء، وشرعت تهب ريح باردة، ونزل المطر. وما كان الوحل قد جف بعد، فما كان دربا ذاك الذى كنا نسير عليه، بل ورطة. فقد تلطخ ظهرى كله بالوحل، كما كانت هي ايضا تنال نصيبها الوافر منه. بكلمة، كان الطقس، لسوء حظها، من الرداءة في اقصى الدرجات هولا. فالمطر يلسع الوجه بسياطه، ومع ان الزحافة كانت مغطاة، اي نعم، وكنت قد سددتها بحصير، ولكن يا سلام! كان الماء يسيل في كل مكان، وهي ترتعد. فانظر اليها، فأرى الرجفة تعصف بكل جسدها، وهي مغمضة العينين. كانت قطرات من المطر تسيل على وجهها، وقد ازرقت الوجنتان فيه وجمدتا، وبدت كانما هى غائبة عن الوعى. فاستولى عليّ

الخوف. فالأمر، على ما ارى، يسير سيرا رديئا... وكان ايفانوف السكران يشخر من جهته، غير مهتم بشيء... فماذا كان في وسعي ان اعمل، لا سيما وانا للمرة الاولى.

بلغنا ياروسلافل والليل مطبق. فهززت ايفانوف، وتوقفنا في المحطة، حيث طلبت اشعال السماور. ومن تلك المدينة تقلع بواخر، ولكن التعليمات كانت تحظر علينا بصورة قاطعة سلوك هذا السبيل. وقد كان لنا فيه فائدة: اذ كان في الوسع التوفير، ولكننا نخشى القيام بذلك. فعلى رصيف الميناء رجال الشرطة، ثم انه لا بد لنا من الارتياب بزملائنا، فان الدرك المحليين يمكن ان يقدموا تقريرا ضدنا. وتقول لنا الآنسة اذ ذاك: «لن اذهب بالزحافة ابعد من هذا. لكم الامر، ولكن خذوني بالباخرة». فاذا بايفانوف، وهو ما يزال مخمورا، وبالكاد يستطيع فتح عينيه، يقول لها في غضب: «لا يجوز لك المناقشة في هذا. تذهبين حيث يأخذونك!». فقالت لي دون ان ترد عليه:

— هل سمعت ما قلت، اني لن اركب الزحافة.

فاخذت ايفانوف جانبا، وقلت له: «يجب اخذها بالباخرة. هذا خير لك. فسيبقى وفر من نفقة السفر». فوافق، الا انه كان على وجل. وقال: «يوجد هنا عميد، شرط ان لا يحدث شيء. فإذهب اليه، واسأله، فانا اشعر بشيء من الوجع». كان مسكن العميد غير بعيد. فقلت: «لنذهب الى هناك، ولنأخذ الآنسة معنا». كنت خائفا: فان ايفانوف، باعتقادي، يوشك ان ينام ليخمر شرابه، والله يعلم ما قد يحدث. ان تغامر فتهرب، او تنتحر، فاكون انا المسؤول. طيب، ذهبنا الى بيت العميد. فخرج لرؤيتنا. وسألنا: «ما حاجتكم؟». فشرحت له الأمر، ولكنها لم تتحدث معه هو ايضا كما ينبغي. فبدلا من ان تطلب في تواضع: هكذا وهكذا، من فضلك، سألتك الله، تكلمت على طريقتها. فقالت: «باي حق» وما شاكل ذلك: انت تعرف، بتلك الكلمات المتغطرسة التي تحبونها انتم السياسيين عموما، في حين ان هذا، كما تعلم، لا يروق للسلطة. فالسلطة تحب الخضوع والاذعان. ومع ذلك فقد استمع اليها دون ان يغضب، واجابها بكياسة: «لا حيلة لي في الأمر، لا استطيع فعل شيء في

هذه الحال. انه القانون... مستحيل!». وانظر
فاراها هذه المرة ايضا وقد تضرج وجهها، وباتت
عيناها كالجمر. «القانون!» وهنا انفجرت ضاحكة
على طريقتها، بصوت عال، ضحكة محنقة. فقال
لها العميد: «تمام. انه القانون!»

ونسيت نفسي بعض الشيء– اعترف بذلك–
فقلت اذ ذاك: «تمام، يا صاحب السعادة، انه
القانون، ولكن الآنسة مريضة، يا صاحب
السعادة!». فسألني ملقيا عليّ نظرة قاسية:
«اسمك؟». ثم قال: «وانت، يا آنسة، اذا كنت
مريضة، فهل ترغبين في دخول مستشفى السجن؟»
فانفتلت وانسحبت دون ان تنطق بكلمة، ونحن
على أثرها. ما كانت تريد دخول المستشفى؛ ولا
بد من القول انها كانت اقل رغبة في ذلك، ما
دامت لم تبق في بلدتها، وليس لديها مال وهي في
مدينة مجهولة.

طيب، لم يكن في الأمر حيلة. واذ ذاك اخذ
ايفانوف يوجه اللوم الي: «تعرف ماذا سيحدث
الآن: أكيد اننا، بسببك يا احمق، سنكون كلانا
مسؤولين». فأمر باعداد الزحافة للسفر، ورفض
الانتظار حتى الغد، فكان لا بد لنا من السفر

ليلا. ودنونا منها: «من فضلك، يا آنسة، العربة
تقدمت». كانت مستلقية على الاريكة، في بداية
شعورها بالدفء. فقفزت واقفة على قدميها،
وجابهتنا وجها لوجه، وراحت تحدق في عيوننا
فجأة بحيث – اقول لك – خفت من النظر اليها.
وقالت: «عليكم اللعنة»، وراحت ترطن بكلامها
غير المفهوم لدينا. كان كلاما يشبه ان يكون
بالروسية، الا ان المرء لا يفهم منه ولا كلمة.
سوى انها كانت تقول بلهجة محنقة بل مثيرة
للشفقة: «طيب، ان السلطة لكما الآن، ففي
وسعكما تعذيبي، فافعلا ما تشاءان. اني ذاهبة!»
وفي هذه الاثناء، كان السماور ما يزال على
الطاولة، ولم تكن قد شربت. جهزنا الشاي انا
وايفانوف، وقدمت لها هي ايضا كأسا. وكنا قد
جلبنا خبزا ابيض، فقسمت لها منه قطعة ايضا.
وقلت لها: «اعدي نفسك للطريق. لتنالي بعض
الدفء». كانت في تلك اللحظة تلبس حذائها
المطاط، فتوقفت عن اللبس، والتفتت نحوي،
ونظرت اليّ طويلا، ثم قالت وهي تشيل بكتفيها:
– اي انسان هذا! يبدو انك مجنون جنونا
مطبقا! انا اشرب شايك!

فشعرت اذ ذاك بجرح اصاب كرامتي الى حد يجعلني حتى الآن احس، لدى تذكر ذلك، بالدم يصعد الى وجهي. انت، مثلا، لا تقرف من مشاطرتنا خبزنا. وقد خفرنا السيد روبانوف، وهو ابن جنرال، فلم يقرف هو ايضا. اما هي، فنعم. ثم طلبت اشعال سماور خاص لها، فوق طاولة على حدة. ومعلوم انها دفعت ضعف الثمن لشراء الشاي والسكر. وكل ما كان معها من مال: روبل وعشرون كوبيكا!

٣

وسكت المحدث، وساد المنزل الريفي بعض الوقت صمت لا يعكره غير انفاس الدركي الشاب الرتيبة، وصفير العاصفة الثلجية في الخارج.

— ألست نائما؟ — سألني غافريلوف.

— لا، استمر، من فضلك، اني مصغ اليك.

وبعد فترة صمت تابع يقول:

— ... عانيت الكثير منها اذ ذاك، كم من آلام عانيت منها. الدرب في الليل، تعرف، والمطر

لا ينقطع، والطقس رهيب... وعبر الغابة المزمجرة. ما كنت اميز وجهها، فقد كانت الليلة فاحمة ماطرة، لا تبصر العين فيها نقطة، ولكنها — صدقني — كانت دائما ماثلة امامي الى حد اني اراها حتى الآن كما لو كانت في وضح النهار: ارى عينيها، ووجهها المغضب، وكل كيانها الراجف، ونظرتها الثابتة دائما في مكان ما، كانما هي تقلّب افكارها في رأسها. ومنذ مبارحتنا بيت المحطة جعلت اسعى لتغطيتها بفروة. وقد قلت لها: «ضعي هذه الجبة، فان هذا يزيدك دفئا». فنفضتها عن كتفيها، وقالت: «هذا المعطف لك، فالبسه انت نفسك». كانت الفروة لي فعلا، ولكني فهمت، فقلت لها: «ليست الفروة لي، انها للدولة: مسموح للمعتقلين بموجب التعليمات»، فلبستها...

ولكن الفروة لم تجلب اي نفع: فحين بزغ الفجر، نظرت اليها، فاذا وجهها قد تغير كليا. وحين بارحنا المحطة من جديد امرت هي ايفانوف بان يجلس على المقعد قرب الحوذي. فتذمر اول الامر، ولكنه لم يجسر على الرفض، لا سيما وروائح الخمرة كانت قد تبددت بعض الشيء. فجلست الى جانبها.

قضينا في الطريق ثلاثة ايام بكاملها، دون ان نتوقف ليلا. فقد جاء في التعليمات ان ليس ينبغي التوقف في اي مكان للنوم، الا في حال «التعب البالغ»، وفي المدن فقط، حيث توجد مراكز حراسة. ولكن اية مدن هنا، كما تعلم بنفسك!

وهكذا وصلنا الى المكان المقصود. وانزاح عن كاهلي عبء هائل منذ ان رأيت المدينة. ولا بد من القول لك: لقد قضت نهاية السفرة بين ذراعي طول الوقت تقريبا. فكنت اراها راقدة، خائرة القوى، في العربة، فلو رجت الزحافة في الحفر، لاصطدم رأسها بالخشب. فكنت ارفعها بيدي اليمنى وابقيها هكذا: وكانت بذلك اكثر ارتياحا. تظاهرت اول الأمر بدفعي. فكانت تقول: «ابعد عني! لا تمسني!» وبعد ذلك لم تعد تمانع. ربما لانها كانت غائبة عن الوعي... العينان مغمضتان، والجفنان ازرقان، وتعابير وجهها قد لطفت، وباتت اقل غضبا. بل كانت تتلامح احيانا ابتسامة من خلال نومها، فيشرق وجهها، وهي تلتحم بي، تلتحم بالحرارة. لا شك ان المسكينة كانت تحلم، في نومها، حلما

سعيدا. ولدى اقترابنا من المدينة، استفاقت، فنهضت... كان الطقس الرديء قد زال، وسطعت الشمس، فانشرح صدرها...

ولكنهم نفوها من مركز المحافظة الى مكان ابعد، وما سمحوا لها بالبقاء هناك، فكان علينا ان نخفرها ايضا، اذ كان الدرك المحليون في ترحال. ووقت السفر، ارى جمعا من الناس محتشدين في مركز الشرطة: فتيات وشبان، على الاغلب طلاب، من المنفيين طبعا... وكانوا جميعا، كأنهم معارف لها، يتحدثون معها ويشدون على يدها مصافحين، ويطرحون عليها الاسئلة. ويجلبون لها بعض المال، وشالا من الصوف للطريق، شالا جميلا... ويشيعونها...

وفي الطريق، كانت مبتهجة كل الابتهاج، ولكنها كانت تسعل كثيرا. اما نحن فما كانت تنظر الينا مجرد نظر.

ولدى وصولنا مركز القضاء المعين مكانا لاقامتها، سلمناها مقابل وصل. وفي الحال سمت كنية ما.فسألت: «فلان هنا؟» فقيل لها: «نعم». ويصل رئيس شرطة القضاء.

فيسألها: «اين ستعيشين؟». فتجيب: «لست ادري، ولكني الآن ذاهبة الى بيت ريازانوف». فيهز رأسه وتخرج هي. دون ان تودعنا...

٤

ويصمت، مرهفا اذنيه ليعلم ما اذا كنت قد نمت.

– ولم ترها بعد ذلك؟

– رأيتها مرة اخرى، وكان خيرا لي ان لا اراها ثانية...

... على ان هذا كان بعد ذلك بقليل من الوقت. فما ان عدنا، حتى بعثوا بنا من جديد بمهمة الى الجهة نفسها. كنا نخفر طالبا، اسمه زاغرياجسكي: ولد مرح يحسن الغناء ولا يستنكف عن الشراب. وكان منفيا الى مكان ابعد ايضا. ولدى مرورنا بتلك المدينة، التي تركناها فيها، كان الفضول يدفعني لأن اعرف كيف تعيش. فسألت: «الا تزال آنستنا هنا؟». فقالوا لي: ما تزال، ولكن يا لها من فتاة غريبة.

منذ ان وصلت ذهبت الى منفي، وما رآها احد بعد ذلك، انها تعيش عنده. يقول بعضهم انها مريضة، ويحكي آخرون انها كما يقال، عشيقة لديه. ومعلوم ما لدى الناس من قال وقيل... ولكني تذكرت قولها: «اريد الموت بين **جماعتي**». وهكذا استحوذ عليّ الفضول... ولكنه، فى الحق، لم يكن مجرد فضول، بل كنت في انجذاب اليها... فقلت فى نفسى: ساقوم بزيارة لها. انها لم تجد قط اي مجال للشكوى مني، وما انا بناقم عليها. ساذهب لرؤيتها...

واذهب اليها، وقد دلني اهل الخير على الطريق. كانت تسكن فى طرف المدينة. بيت خفيض الباب. وادخل بيت ذلك المنفي، فارى لديه النظافة، والغرفة مشرقة: سرير في زاوية تفصله ستارة. حشد من الكتب على الطاولة وعلى الرفوف... والى جانب ذلك مشغل، وسرير آخر على مصطبة.

حين دخلت، كانت جالسة في سريرها، ملتفة بشال، وساقاها مطويتان تحتها. والمنفي... السيد ريازانوف، هكذا يسمي... جالس الى جانبها على المصطبة يقرأ لها في كتاب.

رجل رصين، كما يظهر، على عينيه نظارتان. كانت تستمع اليه، وهي تخيط. واغلق باب الغرفة، فما ان تراني حتى تستوي قامتها، وتمسك بساعده، وتظل هكذا كالمذهولة. العينان متسعتان، قاتمتان مخيفتان... اجمالا، مثلما كانت من قبل، سوى انها بدت لي على مزيد من الشحوب في وجهها. وتشد على ساعده بمزيد من القوة. فيعتريه الخوف ويسرع مقبلا عليها: «ولكن ما الذي دهاك؟ هدئي من روعك!». انه، في هذه الاثناء، لم يكن يراني. ثم تفلت ساعده وتهم بالنهوض من السرير، قائلة له: «وداعا، ارى انهم ياسفون لتركهم اياي اموت في سلام». وهنا يلتفت، فما ان يراني حتى يهب بقفزة واقفا على قدميه. واحسب انه سينقض عليّ... سيقتلني من كل بد. لا سيما وهو رجل طويل، قوي...

لقد حسبا، على الارجح، اني جئت آخذها ايضا... بيد انه يراني جامدا، ميتا اكثر من ان اكون حيا، ولوحدى. فيلتفت اليها، ويأخذ بيدها، قائلا: «هدئي من روعك. وانت، يا شاب، — سألني — ماذا تريد بالضبط؟ ما الغرض من زيارتك؟»

فاوضح له اني لا اريد شيئا، وقد جئت هكذا بلا سبب. من تلقاء نفسي. لما كنت قد خفرت الآنسة، وكانت هي مريضة، فقد جئت لاعرف... فهدأ اذ ذاك. اما هي فكانت ما تزال في اهتياج، وغليان من الغضب. لعلك تقول: وما الداعي لذلك؟ كان ايفانوف، طبعا، رجلا خشنا. ولكني، انا الذي دافعت عنها...

واذ ادرك حقيقة الأمر، قال لها ضاحكا: «ايوه، أترين، لقد قلت لك». فادركت انهما كانا قد تحدثا عني فيما بينهما... انها، بالطبع، قد حكت له عن سفرتها. فقلت:

— المعذرة، اذا كنت قد اخفتك... لا شك ان مجيئي لم يكن ملائما... طيب، اني ذاهب. وداعا، ولا تكن لديك ذكرى سيئة عني، فانت، طبعا، لا يمكن ان تتذكريني بالخير.

فنهض، ونظر مليا الى وجهي، ومد يده اليّ. ثم قال:

— طيب، سيكون لديك فراغ من الوقت قبل عودتك، تعال لرؤيتنا.

وخلال ذلك، كانت تراقبنا مبتسمة على طريقتها، ابتسامة غير طيبة. ثم قالت:

– لست افهم اي داع لزيارته؟ ولماذا تدعوه؟

اما هو فيقول: – لا باس، لا باس، ليعد اذا كان راغباً. تعال، تعال، لا باس!

ولأعترف لك باني لم افهم كل ما قالاه ايضاً فيما بينهما. ذلك لأنكم، انتم يا سادة، تتحدثون احيانا فيما بينكم حديثاً عسيراً على الفهم... على ان ذلك كان مثيراً للفضول. فلماذا لم ابق فاستمع... ولكن هذا كان مزعجاً لي، والله يعلم ماذا كان يمكن ان يفكرا. فانسحبت.

وهكذا، ما ان نوصل السيد زاغرياجسكي الى المكان المقصود حتى ننكفئ راجعين. واذا برئيس شرطة القضاء يستدعي رئيسي فيقول له: «ستظلان هنا الى اشعار آخر. تلقيت برقية. انتما ملزمان بانتظار مغلف مرسل بالبريد». فبقينا طبعاً.

واذهب اليهما من جديد، فقد قلت لنفسي: هيا اذهب، ولو للسؤال عن اخبارها من ارباب البيت. واذهب الى هناك. فيقول رب البيت: «انها في اسوأ حال، وكأنها على وشك الموت. وانا خائف من ان اعتبر مسؤولا. ذلك انهما

لن يستدعيا الخوري». وفيما نحن نتحدث هناك، اذا بريازانوف يخرج. وما ان يراني حتى يبادرني بالتحية، ويقول: «هل عدت؟ اذن، فادخل اذا كنت راغبا». فادخل اذ ذاك بكل اناة وهدوء، وهو من خلفي. وتنظر اليّ فتسأل: «هذا الشخص الغريب ايضا؟ أأنت استدعيته؟» فيقول: «كلا، لست انا، انما جاء من تلقاء نفسه». فاقول لها، وقد بت لا استطيع احتمالا:

– ما هذا يا آنسة، لماذا انت ناقمة عليّ؟ أترى انا عدو لك؟

فتقول:

– عدو تماما. أفلا تعرف ذلك؟ طبيعي، انك عدو!

كان صوتها ضعيفا خفيضا، وعلى وجنتيها احمرار لاهب، وكان وجهها من الحلاوة بحيث يخيل الي اني لن استطيع الشبع من النظر اليه. وافكر في نفسي قائلا: ايه، انها لن تبقى في هذه الدنيا. فرحت اطلب منها المغفرة مخافة ان تموت دون ان تغفر لي. واقول لها:

«سامحيني ان كنت اسات اليك». ومعلوم ان هذه هي العادة المتبعة لدينا، بين المسيحيين... اما هي، فاراها تعود للغليان من الغضب... «المسامحة! اي نعم! اني لن اسامح ابدا، فلا تأمل بذلك، ابدا! ساموت عما قريب... واعلم جيدا: بدون مسامحة!».

ويصمت الراوى من جديد، غارقا في التفكير. ثم تابع بصوت منخفض وتركيز اكثر:

— وهذه المرة ايضا، راحا يتحدثان فيما بينهما. وانت الرجل المتعلم لا بد ان تفهم نسق حديثهما، ولذلك فاني ساقول لك الكلمات التي ما ازال اتذكرها. لقد بقيت هذه الكلمات محفورة فى ذاكرتي، فانا اتذكرها حتى الآن الا اني لا اعرف معانيها. يقول لها:

— الا فاعلمي: القادم لرؤيتك اليوم ليس الدركي... الدركي خفرك، وسيخفر غيرك، فهو يعمل وفقا للتعليمات. ولكن أتعتقدين ان التعليمات هي التي جاءت به الى هنا؟ فلنر، قل، ايها الشاب، لست ادري بم يدعونك...

— ستيبان، — اجبته.

— واسم ابيك؟

— اسم أبي بيتر ويدعونني بيتروفيتش.

— ايوه، ستيبان بيتروفيتش. طيب، لماذا جئت الى هنا؟ أبدافع من المشاعر الانسانية؟ أصحيح؟

— طبعا، — قلت له — بدافع من المشاعر الانسانية. وهذا قد شرحته انت جيدا. حسب التعليمات، لا يسمح لنا حتى بالمجيء اليكم دون ان تكون ثمة ضرورة لذلك. فاذا ما علم الرؤساء بذلك، فلن يكون نصيبي الثناء.

فيقول لها، ويمسك بيدها:

— ايوه، أترين؟

فتسحب يدها، وتقول:

— لست ارى شيئا. انما انت الذي ترى ما لا وجود له. ولكننا نحن الاثنين (يعني هي وانا) اناس بسطاء. الاعداء هم الاعداء، فلا داعي للحديث في هذا الموضوع. مهمتهم ان يراقبونا، ومهمتنا ان لا ندع انفسنا نقع في احابيلهم. وها انت ترى انه هنا يستمع. على انه، مع الأسف، لا يفهم، والا لكان سجل كل شيء في تقريره...

فالتفت صوبي وامعن النظر في وجهي، من

خلال نظارتيه، بعينين واخزتين الا انهما طيبتان. وقال لي: «أتسمع؟ ما قولك؟ على انه لا ينبغي لك ان تشرح شيئا، فانا اعلم ان هذا مهين لك».

ولقد كان الأمر كذلك، طبعا... ففي حال وقوع اشياء مخالفة لمصلحة الدولة، كانت التعليمات تلزمني بوصفي موظفا مستحلفا، ان اقوم بالوشاية ولو على أبي بالذات... بيد اني لما كنت لم آت من اجل هذا، بالتاكيد، فصحيح ان ذلك بدا لي مهينا، وانقبض له قلبي. هذا ما كنت اشعر به. وادور على عقبي متجها صوب الباب، الا ان ريازانوف يوقفني، قائلا:

— مهلا، ستيبان بيتروفيتش، لا تذهب الآن.

ويقول لها، هي: — «هذا ليس بالأمر الحسن... طيب، لا تسامحيه، ولا تصالحيه. لا داعي للكلام في هذا. لعله هو نفسه لن يغفر، لو انه كان يفهم كل شيء كما ينبغي... ولكن العدو قد ينطوي احيانا على انسان ايضا... وهذا بالضبط ما لا تسلمين به. انك ا...عزا...لية، هكذا!»

— ليكن، — تقول له — وانت، انت لامبال... انك لست أهلا الا لقراءة الكتب...

وما كادت تقول له هذه الكلمات حتى — يا للحكاية السخيفة — انتفض واقفا على قدميه. كأنما هي قد ضربته. واما هي فقد اعتراها الخوف من ذلك، على ما رأيت.

— لامبال؟ — ولكنك تعرفين، انت نفسك، انك قلت غير الحقيقة.

— ممكن... وانت، هل قلت لي الحقيقة؟

— اي نعم، انك نبيلة حقيقية مثل موروزوفا*...

لبثت مفكرة لحظة، ثم مدت له يدها؛ فتناولها، فحدقت في عينيه طويلا، وقالت اخيرا: «اجل، بالتاكيد، انت على حق!». وخلال ذلك ظللت منتصبا هناك كالابله انظر واحس كأن شيئا يقبض على قلبي. ثم التفتت صوبي، ونظرت الي من غير غضب، ومدت لي يدها. وقالت:

* النبيلة موروزوفا هي شخصية تاريخية من اشد شخصيات الانشقاق في الكنيسة الروسية تعصبا في القرن السابع عشر. — **الناشر.**

«هاك ما ساقول لك: اننا اعداء حتى الموت... اي نعم، فليحرسك الله، هي ذي يدي، اتمنى لك ان تصبح ذات يوم انسانا بكل معنى الكلمة، لا حسب التعليمات... — ثم قالت له: — انا متعبة».

وخرجت. وعلى اثري خرج ريازانوف ايضا. واصبحنا في فناء البيت، واذا بي ارى كان الدموع تترقرق في عينيه. ويقول لي:

— اى نعم، يا ستيبان بيتروفيتش، ستظل وقتا طويلا هنا؟

— لست ادري. ربما ثلاثة ايام اخرى، حتى وصول البريد.

— اذا كنت راغبا بالعودة، فلا باس، عد. لست بالانسان السيئ، على ما يبدو لي...

— المعذرة، اني قد اخفتها...

— في اعتقادي ان من الافضل التوجه اولا الى ربة المنزل.

— لديّ امر اريد ان اسال عنه: لقد تحدثت الآن عن النبيلة موروزوفا. فهل هذه الآنسة من اصل نبيل؟

— من اصل نبيل ام لا، على كل حال هذا هو العرق: وفي الوسع تحطيمها... على انكم قد حطمتوها... اما ان يجعلها المرء تنحني، فقد رأيت بنفسك: ان امثالها لا ينحنون.

وهنا ودع احدنا الآخر.

٥

... وبعد قليل، ماتت. لم اشهد دفنها. فقد كنت عند رئيس الشرطة. في اليوم التالى فقط التقيت بذلك المنفى. دنوت منه فوجدت وجهه مضطربا كل الاضطراب...

انه رجل مديد القامة رصين الوجه، واذا كان فيما سبق قد تلقاني بوجه بشوش، فقد نظر اليّ هذه المرة بعينى وحش مفترس. همّ بان يمد الىّ يده، الا انه صد يدى فى الحال وحول وجهه عنى. وقال: «لا استطيع رؤيتك الآن. فاذهب عني، يا صاحبي، سألتك الله!..» فمضيت، خفيض الرأس، ووصلت مسكني، وشعرت باضطراب جعلني اقضي يومين دون

ان اذوق الطعام. ومنذ ذلك الحين والأسى لا يفارقني. كما لو كنت مريضا مسحورا.

وفى اليوم التالي، يستدعينا رئيس الشرطة، فيقول لنا: «في وسعكما الذهاب الآن. وصلت الورقة، ولكن بعد فوات الاوان». واضح انه كان علينا ان نخفرها ايضا، ولكن الله رحمها: فاختطفها.

... يبقى ان اقول ما حدث لي فيما بعد، فما هذه هي النهاية بعد. على طريق العودة، توقفنا في محطة... وندخل القاعة، فنرى السماور على الطاولة مع شتى انواع المقبلات، وعجوزا تقدم الشاي لربة البيت. عجوز نظيفة جدا، نحيلة، ولكنها على جانب كبير من المرح والثرثرة. انها تحكي كل شيء. وتقول: «وهكذا حزمت امتعتي، وبعت البيت الذي ورثته، وسافرت للحاق ببنيتي. فكم ستكون سعيدة! اعرف انها ستعنفني، ستغضب، بالتأكيد، ولكنها مع ذلك ستكون مسرورة. كتبت لي انها لا تسمح لي بالحضور، وان ليس ينبغي لي باية حال ان يخطر لي اللحاق بها. ولكن اية اهمية لذلك!»

فاشعر اذ ذاك كأن ضربة قد اصابت قلبي.

واذهب الى المطبخ. فاسأل الفتاة الخادمة: «ما هذه العجوز؟» فتقول: «هذه؟ ولكنها ام تلك الآنسة التي جئتم بها في المرة الماضية». فيترنح ساقاي. وترى الفتاة الاضطراب على وجهي، فتقول لي: «وما الذي جرى لك يا جندي؟» فاقول لها:

– خفضي صوتك، لا ترفعيه هكذا... الآنسة ماتت.

فاذا بها، هذه الفتاة – ولا بد من القول انها فتاة خفيفة تعاشر عابري السبيل – تشبك ساعديها على صدرها، وتنفجر باكية، وتسرع الى الخارج. فآخذ عمرتي واخرج انا ايضا. واثناء خروجي سمعت العجوز التي ما تزال تتكلم مع ربة البيت، فقد كانت تخيفني خوفا لا استطيع التعبير عنه بالكلام. واروح امشي قدما على الطريق، الى ان لحق بي ايفانوف بالزحافة، واذ ذاك صعدت اليها.

٦

... وهذه هي الحكاية!... ولكن رئيس شرطة القضاء كتب، طبعا، في تقريره الى الرؤساء اني كنت اذهب لرؤية المنفيين،

كمـا ان العميـد مـن مدينـة كوستروما ايضا كتب في تقريره اني تدخلت من اجلها، ويتراكم كل هذا مثل كومة من الثلج. فرفض رئيسي ان يقترحني لرتبة صف ضابط. وقال: «اي صف ضابط ستكون، ما انت الا امرأة! عليّ ان احشرك في الزنزانة، يا ابله!». على اني كنت في ذلك الحين لاابالي بشيء، وما كنت اشعر باية ندامة...

بيد اني لا استطيع نسيان تلك الآنسة الغضوب، وما تزال تبدو لعيني، احيانا، هكذا حتى الآن.

فماذا يعني هذا؟ ومنذا سيفسره لي؟ ولكن، ألست نائما، يا سيدي؟

ما كنت نائما... فقد كانت الظلمات العميقة، ظلمات البيت الريفي الصغير الضائع في قلب الغابة، تضغط على نفسي، والصورة الأليمة، صورة الفتاة الميتة، تنبعث في الظلام مرفقة بنحيب العاصفة الخافت...

١٨٨٠



الاضواء

اتفق لي ذات مرة، منذ وقت بعيد، ان كنت مسافرا على قارب في نهر من انهار سيبيريا، وكان ذلك في مساء خريفي قاتم. وفيما انا كذلك اذا ببصيص نور يتلامع فجاة عند منعطف النهر، في سفح الجبال الداجنة.

كان يتلامع ساطعا، قويا، قريبا كل القرب...

فقلت وانا في نشوة من الفرح:

– ثمة، والحمد الله، مكان قريب للمبيت!

فالتفت الجذاف، وتطلع صوب النور من فوق كتفه، وقال وهو يجذف من جديد بهمة ونشاط:

– بعيد!

فما صدقت: فقد كان بصيص النور ثابتا بقوة ولكن الجذاف كان على حق: فقد ظهر انه بعيد فعلا.

تتميز هذه الاضواء الليلية بانها تقترب، متغلبة على الظلمة، وتسطع، وتجذب الانظار

بقربها. فيخيل للمرء ان الطريق توشك على الانتهاء بعد ضربتين او ثلاث بالمجاذيف... في حين انها بعيدة!..

ومضينا طويلا ايضا نمخر عباب النهر الفاحم كالمداد. وكانت الشعاب والصخور تبرز وتتقدم ثم تتلاشى، لابثة في المؤخرة، حتى ليخيل للمرء انها باتت ضائعة في الابعاد اللانهائية، واما بصيص النور فكان ما يزال ثابتا قدّامنا متلألأ جذابا للنظر، على قربه ذاته، وعلى بعده ذاته...

غالبا ما اتذكر الآن ذلك النهر الفاحم، القائم في ظل الجبال الصخرية، وذلك البصيص الحي من النور. ان كثيرا من الانوار، من قبل ومن بعد، قد اجتذبت الانظار بقربها، وما كنت وحدي المجتذب. ولكن الحياة تظل تجري بين تلك الشطئان العابسة، واما الاضواء فتظل نائية. ومن جديد يكون على المرء ان يمخر العباب بالمجاذيف...

ومع ذلك... ومع ذلك، تظل الاضواء قدّام...

١٩٠٠

محتويات